

الأوطان العربية

في كتابات الرحالة الغربيين

د. علي عفيفي علي غازي

كتاب
المجلة
العربية

252

الخط العربي في كتابات الرحالة الغربيين

د. علي عفيفي علي غازي

المجلة العربية

رئيس التحرير
محمد بن عبدالله السيف

الرياض. طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين). شارع المنفلوطي

هاتف: 4777943. 4767345 فاكس: 4766464

ص.ب 5973 الرياض 11432
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com

info@arabicmagazine.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ح

غازي، علي عفيفي
الخط العربي في كتابات الرحالة الغربيين. / علي عفيفي غازي .- الرياض، 1438هـ
128ص؛ 14*21.سم.- (كتاب المجلة العربية: 252)
ردمك: 978-603-8204-31-3
1 - الخط العربي 2 - الرحالة الغربيون أ.العنوان ب.السلسلة
ديوي 051 1438 / 9498

رقم الإيداع: 1438 / 9498
ردمك: 978-603-8204-31-3

المحتويات

9	إهداء
11	المقدمة
18	نشأة الخط العربي
23	تطور الخط العربي
28	كارستن نيبور
40	جان روسو
47	كلوديوس جيمس ريج
62	جمس بكنجهام
70	نيقولا سيوفي
77	جين ديولافوا
82	يوليوس أويتنج
92	ماكس أوبنهايم
102	جيرتروود بيل
108	الليدي درور
123	المصادر والمراجع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)
(سورة القلم: الآية 1)

إهداء

| إلى كل من علمني علماً
 إلى كل من كتبني حرفاً
 إلى كل من أسطرني خطاً
 إلى كل من أهداني قلماً
 أهـــــــدي |

المقدمة

يُنظر إلى الخط العربي باعتباره مسيرة نابضة بمشاعر الإنسان المسلم، توزعت على رقعة العالم الإسلامي؛ لتكون خير شاهد على تاريخ المسلمين وحضارتهم. ولعل أهم ما يميز مسيرة الحرف العربي أنها رحلة وجدانية لتاريخ المسلمين، تعطي فكرة جيدة عن طبيعة الدولة الإسلامية وأهدافها وأساليبها. إذ يحظى الخط العربي بمنزلة عالية عند العرب والمسلمين، ليس فقط لعلاقته الوطيدة بالقرآن الكريم؛ بل لأنه الصورة المرئية للغة العربية التي افتخر العرب بها، ونظموا أشعارهم، ورووا أخبارهم. وكان القرآن الكريم السبب في تجويد الزخارف والخطوط العربية، حيث يرى فيه العرب والمسلمون فناً يُعدهم عن الوثنية والتماثيل والصور، فاستلهموا من النباتات وفروعها وأوراقها أنماطاً من الزخرفة الجميلة، التي امتازت بالتنتي والدوران والإيقاع الموسيقي، والتكرار والتوافق الفني، وكذلك الوحدات الهندسية الرائعة.

يلعب الخط العربي دوراً في التربية الإسلامية، ويتصدى للأصول الفكرية الكامنة وراء مناهج التعليم؛ إذ يحتل مكان الصدارة بين الفنون الإسلامية؛ لأنه من الفنون المتطورة عند المسلمين، وخير شاهد على براعتهم، إذ شهد تطوراً عظيماً، ونهضة كبيرة على امتداد العصور، وفي مختلف ديار الإسلام، من مكة المكرمة إلى غرناطة وإستانبول وشيراز وغيرها. وترك تأثيره على الفنون التجريدية الغربية⁽¹⁾، فكان هو الفن العربي الأصيل بحق، وجوهر وحدة الفن الإسلامي⁽²⁾، وأحد الجذور الأساسية التي تفرعت منها

(1) ألبرت تايبلا: (الحروف الهجائية في الزخرفة الألمانية الحديثة)، مجلة فكر وفن، العدد الثالث، (1964)، ص 52-55؛ زكي محمد حسن: (تراث الفنون الإسلامية في البلقان وأوروبا الوسطى)، مجلة

الكتاب، المجلد الثاني، الجزء العاشر، (أغسطس 1946)، ص 545-553.

(2) زكي محمد حسن: (جوهر الفنون الإسلامية)، مجلة الكتاب، المجلد الأول، الجزء الأول، (نوفمبر

الفنون الإسلامية، وأهم العوامل المحققة لوحدها على اختلاف العصور والأقطار⁽¹⁾.

تلتقي في الخط العربي الأبعاد الزمانية؛ لأنه يُمثل معظم فترات التاريخ الإسلامي. والمكانية؛ لأنه يشمل الرقعة الإسلامية الواسعة. والموضوعية؛ لأنه يُشكّل مجالات الفن الإسلامي في صورة تميز وحدة الأمة الإسلامية في عقيدتها وتاريخها وعلومها وفنونها⁽²⁾. وكان له دور بارز في النهوض بالحركة العلمية والثقافية في العالم الإسلامي، وإنشاء المكتبات العامة وانتشارها وتطورها⁽³⁾، وزخرفة الجوامع والمساجد والمدارس، والبيمارستانات والربط والخانقانات، وتنظيم حركة الدولة، وتنظيم الكتب والمكتبات الوقفية وإدارتها⁽⁴⁾، فمن خلال هذا الفن نتعرف على الوضع الثقافي والحضاري المتميز لمراحل التاريخ العربي والإسلامي، كما نتعرف على الأعلام الذين أسهموا في المسيرة الحضارية للكتاب الإسلامي. وكان، ولا يزال، للخط العربي دور مهم في بيان الجوانب الأخلاقية في الفكر الإسلامي، وأصالة النظرية الأخلاقية الإسلامية، وحفظ ما دون في التراث من تصورات فكرية راقية ومتكاملة.

يتجلى تقدير العرب والمسلمين للكتابة والخط في ما يرد عنهم من نثر ونظم في الإشادة بالخط الجميل، وفي كثرة التشبيه في الأدب بالخط وأدواته،

(1945)، ص 26-38.

(1) حسن الباشا: (أثر العروبة والإسلام في نشأة فنون العمارة والزخرفة الإسلامية)، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الأولى، (ذي الحجة 1395هـ/ ديسمبر 1975)، ص 82.

(2) لؤي داخل: (فن الزخرفة الإسلامية)، مجلة فكر وفن، العدد 56، (1993)، ص 67، 68.

(3) صلاح أحمد الطنوبي: (المكتبات في الإسلام)، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 271، (رجب 1407هـ/ مارس 1987م)، ص 48-54.

(4) ربيحي مصطفى عليان: المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، (عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 1999)، ص 45-50.

وبالحروف وأشكالها⁽¹⁾، وبالغ البعض في تقدير الخط حتى زعموا أن للخطوط أسراراً وقوى خفية، وربطوا بين هذه القوى وبين نسب الحروف العديدة، وخصوا كل حرف بطبيعة من الطبائع، وقرنوا بين عالم الطبيعة والحروف⁽²⁾، وبذل العرب جهوداً متواصلة في سبيل الوصول بالخط إلى مستوى فني رفيع، كما أسهم الخطاط العربي في إخراج معظم التحف الفنية الإسلامية سواء في مجال العمارة أو الفنون التطبيقية أو التشكيلية⁽³⁾، إذ لم يقتصر عمل الخطاطين على الكتابة على الورق بل امتد إلى الكتابة على التحف الفنية والمعمارية بواسطة التلوين والترصيع والحفر سواء في الجص أو الخشب أو الحجر أو غير ذلك من مواد البناء والزخرفة⁽⁴⁾.

يتطور فن الخط العربي في إطار العلاقة القائمة بينه وبين العناصر الفنية الأخرى، التي تُشكّل الرؤية الجمالية للأمة الإسلامية، ويلعب دوراً في العلوم والعمارة والديكور، والخزف، والزجاج والمنسوجات، والعاج والمجوهرات، والمعادن النفيسة، وهناك علاقة وطيدة تربطه بالإعراب والرقش والزخرفة. ففي رحم هذا الفن ولدت الزخرفة الإسلامية، وحوله نسجت أصولها الفكرية والدينية، وضروبها الكتابية والهندسية والنباتية والحيوانية والآدمية. فظهرت مقرونة به على الأسلحة بأنواعها، والحلي

-
- (1) محمد بن موسى بن علي الشافعي المعروف بابن البصيص: شرح قصيدة ابن البواب في علم صناعة الكتاب، يوسف ذنون (تحقيق)، (بيروت: دار النوادر، 2008)، ص 6، 7.
 - (2) طارق بن سعيد القحطاني: أسرار الحروف وحساب الجمل، رسالة ماجستير غير منشورة، (مكة المكرمة: كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، 2009)، ص 20-23؛ سيد حسب الله: (الحروف العربية وعلاقتها بالحساب)، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة الخامسة، (ربيع الثاني 1400هـ/ مارس 1980)، ص 139-150.
 - (3) سوزان شكرون: (علاقة الزخرفة والحروفية بالفنون التشكيلية في الغرب والعالم العربي)، مجلة العربي، العدد 635، (شوال 1432هـ/ أكتوبر 2011م)، ص 122-129.
 - (4) عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة العلامة ابن خلدون، (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي، د. ت.)، ص 561-592.

والجواهر، ومواد الاستخدام اليومي كالصحاف والعلب والمباخر، والمحابر وأدوات الكتابة وغيرها؛ في صورة تعكس التقنيات التي استخدمها المسلمون، وتوضح أنواع الزخرفة والتزييق، التي أبرزت اهتمام المسلمين بالكتابة والخط، خاصة المخطوطات⁽¹⁾.

يبرع العرب والمسلمون في فن الخط العربي، ذلك الفن العربي الإسلامي الأصيل، ويتوارثونه كفن ومهنة، وتؤكد ذلك المخطوطات وأدوات الخط، التي تعج بها المتاحف حول العالم، والأماكن الأثرية والبيوت والمساجد، حيث يُمكن مُشاهدة إبداعاتهم الرائعة في هذا الفن، الذي زينته آيات القرآن الكريم، وروائع الحديث الشريف، والحكم الخالدة الشهيرة ذات المعاني الكبيرة، التي تحضّ على مكارم الأخلاق. وزينوا به واجهات المساجد ومنابرها ومحاربيها⁽²⁾. وقد تميزوا بذلك في استخدام الخط، فأضافوا لما كتبوا زخارف نباتية وهندسية؛ لجذب الأحاسيس، ولتكون وسيلة لتدوق معانيها، لتسمو بنفس وعين المشاهد منذ النظرة الأولى العابرة⁽³⁾. ودخل الخط العربي كعنصر زخرفي في منتجات الفنون الإسلامية المختلفة، وذلك لما له من ميزة زخرفية واضحة، وكانت التحف في بعض الأحيان تشتمل على حروف وكلمات عربية لا معنى لها، كما أن الكتابة أحياناً تصل إلى درجة الغموض بحيث يتعذر قراءتها وتفسيرها، ومن ثم كان دور الكتابة يقتصر في هذه الحالات على الزخرفة فقط⁽⁴⁾.

-
- (1) محمد بوشعيب الصغير: (زخرفة المخطوطات مفخرة الحضارة الإسلامية)، جريدة الفنون، العدد 84، (ديسمبر 2007)، ص 26، 27.
- (2) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرهما، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1978)، ص 38.
- (3) علي عفيفي علي غازي: (منهج النقد الفني للوحات الخطية)، المجلة العربية، العدد 404، (رمضان 1431هـ/ سبتمبر 2010م)، ص 82-85.
- (4) نجاة شاكر محمد زيدان: (أثر العقيدة الإسلامية في فن الزخرفة عند المسلمين)، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الثالثة، (صفر 1398هـ/ يناير 1978م)، ص 74-76، 82، 83.

ينظر الباحثون والدارسون والمهتمون بالتراث العربي والإسلامي إلى الخط العربي باعتباره أكثر إبداعات الحضارة العربية الإسلامية أهمية، وأكثرها شمولاً لكل مظاهرها؛ لارتباطه بكل إنجازات هذه الحضارة، وبكل ما أبدعه العرب من فنون وعلوم وآداب، إذ لم تكن هذه الحضارة ممكنة من دون كتابة عربية تدون الإنتاج، ومن دون خط عربي مرن وسلس قادر على حفظ نتاج الفكر والعلم، وتدوين ذلك بيسر وسهولة، لهذا تكثف الإبداع في الخط العربي، وأعطى أصالة هذه الحضارة، وأثمرت شجرة الخطوط العربية الرئيسية من خلال فروعها، فأنتجت مجموعة رائعة من الخطوط الجديدة، فقد أخذت الخطوط القديمة، وأعيد النظر فيها، ووضعت لها القواعد والضوابط، التي مكنت من عملية انتقال الحضارة وشيوعها، وانتقال مبادئها، وأسسها إلى الآخرين.

يحفظ الخط العربي كل ما أنتجته الحضارة الإسلامية، ويؤين كل ما شيده العرب والمسلمون، ولذلك عُدَّ الفن الأكثر صلة بما أبدعه العرب من إنتاج متنوع، لأنه الإنتاج الأول، الذي ازدهر مع هذه الحضارة، واعتبر أعظم إبداعاتها، وقدم لإبداعها التجسيد المادي على الورق، والجدران، والأواني. وقد تمكن الخطاط العربي من أن يُبدل جوهرياً الكتابات السابقة له، وذلك لكي لا تضيق الكلمات وتتداخل، ولكي يُصبح الخط أكثر رشاقةً وجمالاً وانضباطاً، وهو الوسيلة الرئيسية للإبداع الفني؛ إذ إن الخطاط العربي تمرد على الأشكال التقليدية للخطوط السابقة، وجعل للخطوط العربية سماتها المميزة والتميزة، وأضاف إليها ما يُعتبر ثورة في مجال تطور الكتابة، لهذا يُعتبر الخط هو الإنتاج العربي، الذي استطاع فيه الفنان المسلم أن يُحقق تطوراً شاملاً.

يكتسب الخط العربي خصوصيته من السماء؛ إذ يقرن الحق سبحانه

وتعالى بين العلم والكتابة في أول ما نزل من القرآن الكريم من آيات (اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم) (سورة العلق، الآيتان 3، 4) وأقسم سبحانه بالقلم والكتابة في قوله: (ن والقلم وما يسطرون) (سورة القلم، الآية 1)، كما وصف سبحانه وتعالى ملائكته بأنهم (كراماً كاتبين) (سورة الانفطار، الآية 11)، وأشار إلى الخط بقوله (وما تخطه يمينك) (سورة العنكبوت، الآية 48). فكان تدوين القرآن الكريم بالخط العربي؛ هو السبب الأول والرئيس في تطوير الكتابة العربية، ويزداد الاهتمام به مع نمو الدولة الإسلامية بظهور المخطوطات، التي تجمع بين جمال الخط، وروعة الزخرفة⁽¹⁾، وفي كتابات المساجد في القاهرة، وإستانبول، وغرناطة، وبغداد، ودمشق. والخط العربي ليس مجرد حروف ورموز تؤدي معاني ودلالات؛ بل هو إلى جانب كل ذلك علم وفن له بصماته الذهنية، وقدرته الفائقة على تجسيد كل الصور، والأشكال، والمعاني، وتأتي في مقدمة أغراض فن الخط أن يُخلد كلام الله في الصُحف، ومن هذا استمد مكانته، وقد أضفى المصحف الشريف على الخط العربي رونقاً جديداً، حيث تبارى الخطاطون في إبداع أنماط متعددة لكتابة المصحف الشريف، وزينوه بأشكال مختلفة، وأبدعوا في إظهاره في صور تعكس قدر الاحترام والتقدير بدستور المسلمين الخالد، وهكذا ينظر المسلمون إلى الخط نظرة إكبار وتقدير، ويتذوقونه بمتعة روحية، بالإضافة إلى اللذة الجمالية⁽²⁾.

ينفرد فن الخط العربي، ويتميز عن ما سواه من الفنون الإسلامية الأخرى؛ بأنه بصورته التي عرفها المسلمون، فن أصيل يختصون به، وهو

(1) خالد الأغا: (القرآن.. وإبداعات الخط العربي)، مجلة أخبار الأسبوع، العدد 351، (6 مارس 1993)، ص 84-86.

(2) كامل إبراهيم: (فن الخط العربي)، مجلة فكر وفن، العدد 38، (1983)، ص 100.

فن إسلامي خالص كان له أثره الكبير في التصوير⁽¹⁾، إذ لم يكن في تراث الأمم والشعوب التي دخلها الإسلام، أو البلاد التي انتشر فيها؛ فن يُناظره، فهو خط أساسه الحرف العربي؛ بما يمتلك من إمكانيات جمالية، وبه وجد المسلم منفذاً للتعبير عمّا في طبيعته من تذوق للجمال؛ حين كان يتوجب عليه أن يُعبر عن هذه الناحية الفنية في ميدان التصوير أو تمثيل الكائنات الحية، فهو فن غني بالقيم الجمالية، والتصريفات الإبداعية، والأبعاد الحركية، والإيقاع والتكرار، والشكل التكويني، والكتلة والفراغ، وقد نشأ هذا الفن في القرن الثاني للهجرة⁽²⁾، وتطور في القرون التالية تطوراً كبيراً، وقد جاء ذلك نتيجة استخدام الشعوب الإسلامية له، فكل الشعوب التي من الله عليها بهداية الإسلام كتبت بالخط العربي، فتطور نتيجة لإسهامات العبقرية الفنية من مختلف هذه الشعوب في إثراء ذلك التراث الإسلامي بشتى علومه وفنونه، ولقي عناية فائقة في كافة البلدان الإسلامية، وتقدم على أرضها لاسيما في حواضر المدن التي تزعمت العالم الإسلامي، وشهدت مظاهر الحضارة الإسلامية.

يُمكن اعتبار الخط العربي الوليد الأول والأغنى للحضارة العربية، من دون أن يدين للفنون السابقة على الإسلام، فمرحلة الخط بعد انتشار الإسلام أصبحت عبارة عن ممارسة فنية كاملة، على اعتبار أن الخط العربي هو المقابل العربي لمكانة الصورة في الحضارات السابقة، ومحاكاته الكائنات البشرية عبر التعبير الفني والتصويري. فقد دخل الخط العربي في أروع أشكاله في زخرفة كل المجالات من كتب ومخطوطات، وقرآن كريم، وقباب ومساجد، وواجهاتها.

(1) يحيى سويلم: (بدائع الفنون الإسلامية وتجلياتها)، مجلة جريدة الفنون، العدد 82، (أكتوبر 2007)، ص 81-21.

(2) محمد حميد الله: (صناعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة)، مجلة فكر وفن، العدد الثالث، (1964)، ص 27-21.

نشأة الخط العربي

يرتبط مفهوم الزمن لدى الإنسان، منذ اللحظة الأولى التي بدأ يدب فيها على سطح كوكب الأرض، بما يجري من تغيرات في العالم الذي يعيش فيه، ومن ثم بدأ يبحث عن وسيلة لتدوين ما يمر به من أحداث؛ لأنه أدرك أنه لا غنى له عن تدوين مسيرته الحضارية على سطح هذا الكوكب منذ الأزل، ومن ثم لجأ إلى الرموز كوسيلة أولى للتعبير عن أفكاره، وتدرج إلى أن ظهرت الكتابة في مصر منذ سنة 3800 قبل الميلاد بأنواعها الثلاث: الهيروغليفية والهيروغليفية والديموطيقي⁽¹⁾. وقد تطورت هذه الكتابة من كتابة صورية إلى كتابة صوتية، ثم أدائية، وأخيراً كتابة حرفية، يُشكّل الحرف نواتها، وانتقلت الكتابة المصرية القديمة إلى الجزيرة العربية عبر الكتابة السينائية⁽²⁾، وتطورت في شمالها إلى الكتابة الكنعانية والفينيقية، والعبرية والمؤابية والعمونية والآرامية، وهي الكتابة التي انبثق منها الخط اللاتيني، الذي ولدت منه جميع الخطوط المستعملة في أوروبا في الوقت الحاضر، أما في الجنوب فقد تطورت إلى الكتابة الحميرية، التي كانت تطويراً للكتابة النبطية⁽³⁾.

تعود الكتابة العربية، التي تنتمي إلى عائلة الأبجديات السامية، بجذورها إلى الألف الثاني قبل الميلاد، وترتبط ولادتها بميلاد الكتابة الأبجدية، التي مرت بمراحل منذ أن كانت رموزاً مرسومة للكلمات المادية، وبعدها الكلمات

(1) باسكال فيرنو: (الكتابات في مصر القديمة)، خالد داوود (ترجمة)، في كتاب خالد عزب (تحرير): تاريخ الكتابة من التعبير التصويري إلى الوسائط الإعلامية المتعددة، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2005)، ص 45، 48.

(2) ماهر أحمد عيسى: (ماذا تحول المصريون إلى اللغة العربية؟)، مجلة رواق التاريخ والتراث، العدد الأول، (يناير 2016)، ص 133.

(3) أندريه لومير: (أصل الأبجدية السامية العربية وكتابتها)، قاسم عبده قاسم (ترجمة)، في كتاب خالد عزب (تحرير)، مرجع سابق، ص 203-209.

المعنوية، وصولاً إلى المقاطع المرسومة، وتحول بعضها إلى الرموز والعلامات، التي تعتمد على الأصوات الساكنة، والمقاطع المتحركة الطويلة، مشتقة من أصغر وحدة صوتية في مقدمة الكلمات (حرفها الأول) ثم تنقلت في أرجاء الجزيرة العربية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، متطورة عن بعضها البعض، ومبتعدة عن رسوماتها الأولى، لتُصبح أول أبجدية عربية مكتوبة⁽¹⁾.

يولد الخط العربي في شمال جزيرة العرب بتأثير من الخطوط السائدة في العراق في بلدتي الحيرة والأنبار المركزين الرئيسيين، اللذين انبعث منهما تعليم الكتابة الخطية للجزيرة العربية، أو الكتابة الحضرية الخاصة بمملكة الحضر العربية، التي تشكلت في الجزيرة الفراتية⁽²⁾، ثم انتقل إلى مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائف، وغيرها من المراكز الحضارية في الجزيرة العربية. وقد كان العرب قبل الإسلام يهتمون بالكتابة فاستعملوها في شؤون حياتهم كتدوين العقود، والوثائق السياسية والتجارية، والأدب والشعر، وكل جوانب الحياة. ولم تكن الأمة العربية أمية بمعنى أنها تجهل القراءة والكتابة؛ فإن نزل القرآن الكريم عليها بهذا العمق الفكري، وبهذا الأسلوب البليغ؛ يعني أن هناك أمة لديها القدرة على فهمه وحمل رسالته وتبليغها للناس أجمعين⁽³⁾.

يختلف المؤرخون وعلماء اللغة العربية حول تحديد جذور الكتابة العربية، ومن ثم نشأة الخط العربي⁽⁴⁾، ولكن المؤكد أنه ظهر قبل الإسلام، إذ استعمله

(1) فرانسيس ديروش: (الكتابة العربية)، محمد عبدالستار عثمان (ترجمة)، في كتاب خالد عذب (تحرير)، مرجع سابق، ص 219.

(2) فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى: الحضر مدينة الشمس، (بغداد: مديرية الآثار العامة بوزارة الإعلام، 1974)، ص 403.

(3) جواد علي: الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بغداد: جامعة بغداد، 1993)، ج 8، ص 152 وما بعدها.

(4) علي عفيفي علي غازي (نشأة وتطور الخط العربي في الإسلام)، المجلة العربية، العدد 405، (شوال

العرب في كتابة موثقتهم وعهودهم، وأشعارهم ومعلقاتهم، وفي ذلك يروي البلاذري (ت 285هـ/ 892م) عن محمد بن السائب الكلبى والشرقي بن القطامي، أنه (اجتمع ثلاثة نفر من طيء ببيعة⁽¹⁾)، وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط، وقاسوا الهجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار، ثم تعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار، وتعلم بشر، أخو أكيدر بن عبد الملك الخط من أهل الحيرة، ثم أتى مكة في بعض شأنه، فعلم رجلين هناك، ثم رجلاً في الطائف، وآخر في ديار مضر، وناساً في الشام، وتعلم الخط من الثلاثة الطائفين أيضاً رجل من طابخة كلب، فعلمه رجلاً من أهل وادي القرى، فأتى الوادي يثرب فأقام بها وعلم الخط قوماً من أهلها⁽²⁾. أما ابن النديم (ت 385هـ/ 995م) فيذكر أن (أول من صنع ذلك قوم من العرب العاربة، ومن أسمائهم أخذوا الحروف: أبجد هوز حطي كلمن صعفن قرست، ثم وجدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم، وهي: الثاء والحاء، والذال والطاء، والغين والشين، فسموها الروادف... وقال ابن عباس أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال، سكنوا الأنبار، وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فأما مرامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الإعجام)⁽³⁾.

1431هـ/ سبتمبر 2010م)، ص 21-23.

- (1) بقية: حاضرة من حواضر العرب قبل الإسلام، تقع جنوب شرق مدينة الحضر، اكتسبت دورها وشأنها في القرن الثالث الميلادي زمن جذيمة الأبرش، ومن بعده الساسانيين، وخاصة زمن سابور الثاني (310-379م) واستمرت أهميتها إلى زمن عمرو بن هند الذي كان يدير شؤونها زمن أبيه المنذر (514-563م)، وقل شأنها بعد ذلك مع ازدهار مدينة الأنبار، التي تقع جنوبها. أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني: مختصر كتاب البلدان، (لیدن: مطابع برييل، 1302هـ)، ص 128؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، (بيروت: دار صادر، 1977)، ج 1، ص 473.
- (2) أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: فتوح البلدان، عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع (تحقيق)، (بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1987)، ص 659، 660.
- (3) ابن النديم: الفهرست، (بيروت: دار النوادر، 2012)، ص 45، 46.

يرى أصحاب الرأي الأول أن نشأة الخط العربي كانت إلهية محضة، حيث إن الله عز وجل قد أوحى إلى آدم بطريقة الكتابات كلها، ثم كتب بها آدم كل الكتب، وبعد زوال طوفان نوح عليه السلام أصاب كل قوم كتابهم، فكان من نصيب إسماعيل عليه السلام الكتاب العربي، ويُطلق علماء الخط على هذا الاتجاه (نظرية التوقيف)⁽¹⁾.

يذهب فريق آخر إلى أن الخط العربي اشتق من الخط المسند، الذي يُعرف باسم (الخط الحميري أو الجنوبي)، وأطلقوا على هذا الخط اسم (الجزم)؛ لأنه جُزم أو اقتطع من الخط الحميري، وهذا هورأي ابن خلدون الذي يقول: «وقد كان الخط العربي بالغاً مُبالغة من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة، لما بلغت من الحضارة والترف، وهو المسمى بالخط الحميري. وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة إلى المنذر نساء التبابعة في العصبية، والمجددين لملك العرب بأرض العراق. ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة، لقصور ما بين الدولتين. فكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك. ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش»⁽²⁾.

يُرجح الفريق الثالث أن الخط العربي ما هو إلا نتاج تطور عن الخط النبطي، المنحدر عن الخط الآرامي⁽³⁾، ويستشهدون على ذلك من تقليد العرب النبط في حذف الألف من بين بعض الأسماء والأعلام، كما أنهم احتفظوا بنفس عدد الحروف النبطية، ونفس تركيبها الأبجدي، ويستدلون على صدق توجههم بالنقوش التي ترجع إلى ما قبل الإسلام، والقرن

(1) يوسف ذنون: الكتابة وفن الخط العربي النشأة والتطور، (بيروت: دار النوادر، 2012)، ص 45، 46.

(2) عبدالرحمن بن خلدون: مصدر سابق، ص 418.

(3) محسن فتوني: موسوعة الخط العربي والزخرفة الإسلامية، (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،

الهجري الأول، ومن هذه النقوش نقش (أم الجمال) وهو عبارة عن شاهد قبر للقائد (فهر بن سالي)، ويعود تاريخه إلى 250م، وهناك نقش وجد في منطقة حوران إحدى ديار الأنباط يعود تاريخه إلى 328م، يُعرف باسم نقش (النمارة) وهو عبارة عن شاهد قبر (امرئ القيس) الملك والشاعر الشهير⁽¹⁾، ثم انتقل الخط من حوران إلى الأنبار والحيرة، وقام الأنباط بإجراء بعض التعديلات على الخط الآرامي، الذي نُسب إليهم فُعرف بالخط النبطي، ثم كان لهم الفضل في نقله إلى العرب في الحجاز؛ نظراً لعلاقتهم التجارية الوثيقة مع الجزيرة العربية⁽²⁾.

يتبنى الخطاط والباحث في تاريخ الخط العربي يوسف ذنون، شيخ خطاطي الموصل، نظرية رابعة حديثة يذهب فيها إلى أن الخط العربي نشأ متأثراً بالكتابة الحضرية الخاصة بمملكة الحضر العربية، التي تشكلت في الجزيرة الفراتية، والتي تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد، ومنها انتشرت كتابتها، ولم تقتصر على الحضر، وتطورت عنها الآرامية، ويؤيد اتجاهه بإجراء مقارنات بين أشكال الحروف الحضرية والكتابة الآرامية، والحروف العربية المعاصرة، يُدلل على اشتراك هذه الكتابة في الخصائص العامة مع الكتابات المعاصرة المتطورة عن الآرامية، ليذهب إلى جزم هذه الكتابة عن الكتابة الحضرية في رحلة الكتابة العربية المبكرة إلى بلاد الشام، وتأثيراتها المتبادلة بعد ذلك في أعراب الجزيرة العربية⁽³⁾.

(1) يوسف محمد عبد الله: (صور أدبية من خلال الشواهد الأثرية في جزيرة العرب قبل الإسلام)، مجلة رواق التاريخ والتراث، العدد الثاني، (يونيو 2016)، ص 40.

(2) يحيى وهيب الجبوري: الخط والكتابة في الحضارة العربية، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994)، ص 22 وما بعدها.

(3) يوسف ذنون: (الكتابة الحضرية وأثرها في نشوء الكتابة العربية)، مجلة فنون إسلامية، العدد الأول، (خريف 2009)، ص 88-96.

يميل الباحث إلى الرأي الذي يقول: إن التدوين يرجع إلى أبي البشرية آدم استشهاداً بقوله تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) (البقرة: آية 31)، وقوله تعالى مخاطباً نبيه المصطفى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم) (العلق: الآيات 1-5). ويرى أن هذا لا يتعارض مع الآراء الثلاثة السابقة، والتي تحتمل جميعها الصدق، فليس من المستبعد أن يكون الخط العربي في رحلة تطوره ولد في الجنوب متأثراً بالخط الحميري، وولد في الشمال متأثراً بالخط النبطي، الذي فيما يبدو كان نتاجاً للخط الحضري، ومن ثم تفاعلت كل هذه الخطوط معاً وانصهرت في بوتقة واحدة ولدت الخط العربي المعروف حالياً.

تطور الخط العربي

يمر الخط العربي بمراحل تطور بداية من الخط المسند، وصولاً إلى الخط العربي الإلكتروني في عصر الحوسبة، والإنترنت والعولمة، والحدثة والعدمية، ويطرأ عليه تغيير وتطوير؛ ليتواءم مع مستجدات كل زمان، حتى تحول إلى فن وخط عالمي، وإلكتروني في عصر ما بعد السوبر حداثة⁽¹⁾. وأول الخطوط العربية هو الخط المكي غير المنقوط الذي كتبت به المصاحف في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ورث أهل مكة المكرمة هذا الخط (القلم) عن العصر السابق للإسلام من دومة الجندل بالجوف، في شمال شرق الجزيرة العربية، وكان يُطلق عليه قلم الجزم، فلما كتبت في

(1) يوسف ذنون: زينة المعنى (الكتابة، الخط، الزخرفة)، (الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث، 2015)، ص 130، 131.

مكة المكرمة أُطلق عليه (القلم المكي)⁽¹⁾، وهو الخط المستمد من خط الجزم الحيري أو الأنباري، والمستنبط من الخط النبطي، خط أنباط العراق، أو من الخط الحضري، خط مدينة الحضر العراقية. وينتشر الخط العربي مع ظهور الإسلام، حيث تكثر الكتابة مع حركة الفتوحات الإسلامية، وتزداد الحاجة إلى الخطاطين؛ لكتابة المصاحف والرسائل إلى ولاة الأمصار.

يصحب الخط العربي في مساره تطوراً وإضافة، حيث أُضيفت العلامات التي ضبطت القراءة القرآنية، إذ يُكتب الخط العربي في بدايته بلا نقاط، إلى أن يقوم أبو الأسود الدؤلي (ت 69هـ / 688م) في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (26-86هـ / 646-705م) بوضع النقط على الحروف المتشابهة، مثل التاء والتاء، الصاد والضاد، والعين والغين. ثم وضع بعد ذلك أبواب العطف، والنعت، والتعجب، والاستفهام. وقد يقول قائل هذا من الإملاء وليس من الخط؛ فنقول إن النقط وغيرها تدخل في الخط أيضاً، لأن الخطاط قد يتفنن بها. ويقوم الخليل بن أحمد الفراهيدي بوضع علامات الترقيم والتشكيل (الفتحة، والكسرة، والضمّة، والسكون، والشدة، والمدة، والصلة، والهمزة)، وذلك عند اختلاط العرب بالعجم بامتداد الفتوح الإسلامية، واتساع رقعة البلاد الإسلامية، فحدث الخلط واللبس في الكلمات، فكان لا بُد من وضع الشكل بالنقط، فكانوا يضعون الفتحة نقطة حمراء فوق الحرف، والكسرة نقطة حمراء أسفل الحرف، وتكرر نقطتان في التنوين⁽²⁾.

تأتي بعد ذلك مرحلة تمييز الإبهام في الحروف، حيث يقوم نصر بن عاصم الليثي (ت 89هـ / 708م) ويحيى بن ناصر العدواني (ت 90هـ / 709م)،

(1) يوسف ذنون: (الخط المكي)، مجلة حروف عربية، العدد 37، (محرم 1437هـ / أكتوبر 2015م)، ص 9-4.

(2) أنس محمد رأفت محمد سعيد: المحاور النحوية جمع ودراسة موضوعية، إبراهيم عوض وعلي عفيفي علي غازي (تقديم)، (الدوحة: المؤلف، 2017)، ص 7-9.

في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق، بوضع نقط للحروف المتشابهة، مثل (الباء والتاء والثاء، والذال والذال، والطاء والطاء، والصاد والصاد...)، وذلك سنة 75هـ / 694م. وأصبح على الكاتب أن يستعمل نوعين من المداد، الأسود للنقط، والأحمر للشكل. ويأتي من بعدهم الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 135هـ / 750م) فيضع أشكالاً جديدة للضبط اللغوي، بالإضافة لبعض علامات الضبط الإقراي، ولكنها لم تستعمل مع الخط المكي في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، إلا أنها سادت بعد ذلك إلى اليوم.

يبلغ الخط العربي أوج قمته في مصر على يدي الخطاط المصري (طبطبب المحرر)، وذلك في عهد أحمد بن طولون (254-270هـ / 868-883م)، حيث كان أهل بغداد يحسدون مصر عليه، وعلى ابن عبد كان، ويقولون: «بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما»⁽¹⁾. وتأتي بعد ذلك المرحلة التي ظهر فيها الخطاط الوزير (ابن مقلّة) المولود سنة 272هـ / 886م، الذي مارس الخطاطة في سن مبكرة، وتولى التدريس في العشرين من عمره، ويُعدّ أول من وضع أسساً مكتوبة للخط تتضمن موازين وهندسة الحروف، وقدر مقاييسها وأبعادها بالنقط وضبطها ضبطاً محكماً، وأطلق على الخط الموزون⁽²⁾ مُسمى الخط المنسوب، واستخلص (ابن مقلّة) أنواع الخطوط (الثلاث، التوقيع، المحقق، الريحاني، الرقاع)،

(1) حسن أحمد محمود: الكندي المؤرخ وكتابه الولاية والقضاء. (القاهرة: الدار العربية للتأليف والترجمة، د.ت.)، ص 27.

(2) يبلغ عدد أقلام الخطوط الأصلية الموزونة اثني عشر قلاماً: السجلات، الديباج، الطومار الكبير، الثلثين، الزنبور، المفتح، الحرم، المؤامرات، اليهود، القصص، المعامة، الأشعار. وأوصلها البعض إلى سبعة وثلاثين خطأ ووضعوا لها أسماء خاصة بها. حبيب أفندي بيداش: الخط والخطاطون، سامية محمد جلال (ترجمة)، الصفصافي أحمد القطوري (مراجعة)، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010)، ص 103، 104.

وقام بتجويد الخط النسخ، الذي يُكتب به القرآن الكريم، وذلك لاتسامه بالوضوح، وقبول وضع الشكل على الحروف، وظل يُسهم إسهامات طيبة في هذا المجال حتى وفاته 328هـ / 939م.

يرتقي الخط العربي في تلك الفترة بفضل اهتمام الخلفاء العباسيين به، فيظهر أكثر من عشرين نوعاً من الكتابة المنسوبة، الأمر الذي يجعل (ابن مقلة) يحصر أنواع الخط، ويستخلص منها ستة فقط هي: الثلث، النسخ، التوقيع (أي الإجازة، وهو بين الثلث والنسخ)، الريحان (وهو شبيه بالثلث)، والمحقق (وهو شبيه بالنسخ)، الرقاع (وهو خليط من الثلث والديواني)، والرقعة⁽¹⁾. ويأتي من بعده (ابن البواب) الذي يُكمل المسيرة على نفس النهج الذي رسمه (ابن مقلة). وفي سنة 131هـ / 746م يُرسي الخطاط قطبة المحرر قواعد الخطوط الكوفية. ومن سنة 136هـ / 751م إلى 139هـ / 754م يخترع إبراهيم الشجري خطي الثلث والثلثين. ويخترع أخوه الخطاط يوسف الشجري خطاً جديداً يُسمى الخط الرياسي (خط التوقيع حالياً)⁽²⁾. وبعد مضي فترة من الزمان ظهر في إيران خط اسمه (شكسته)، مؤسسه شفيعا، وأكمله درويش عبدالمجيد الطالقاني، وهذا الخط بالرغم من انتشاره على نطاق واسع في إيران اليوم، إلا أنه يعد ملحمة كبرى وطلسمًا لا يُقرأ⁽³⁾.

وأخيراً فإن ذلك الموروث المهم يجب أن يُنقل للأبناء والأحفاد، وتمكينهم من مواصلته. ولو ساد توجه بالاهتمام بالتراث العربي والفنون العربية الإسلامية التراثية الأصيلة، وتمّ توجيه أساليب التدريس الفني نحو هذا

(1) محمد طاهر الكردي المكي: تاريخ الخط العربي وأدابه، (القاهرة: مكتبة الهلال، 1939)، ص 174.

(2) سهيلة ياسين الجبوري: الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق، (بغداد: مطبعة الزهراء، 1962)، ص 67-94.

(3) حبيب أفندي بيداش: مرجع سابق، ص 320.

التراث، وساعدت وسائل الإعلام في التوعية بجمالياته؛ لكان ذلك بداية الطريق للإحساس بالجماليات العربية، وهي الأصل الذي لا بُد أن ينبثق منه أسلوب وطابع فني عربي؛ بما يُعمق الهوية والانتماء والمواطنة في عصر ما بعد السوبر عدمية. ولعل هذه دعوة للاهتمام به لإعادة بعثه من سباته العميق، بصفته عنصراً من عناصر الهوية والتراث؛ لنُحافظ عليه ولنُواجه به العولمة الاجتياحية المذيبة للقوميات والحدود، في العالم، الساعية لتحويله إلى قرية كونية صغيرة، فما أوجنا إلى الاهتمام بكل فروع التراث.

واللّٰه من وراء القصد، وهو يهدي السبيل،،،

2 مايو 2017

كارستن نيبور

يولد الرحالة كارستن نيبور Karsten Niebuhr، العالم الدنمركي من أصل ألماني، بمدينة لدينبورث Ludingworthe من مقاطعة لاونبرج Lauenberg، في 17 مارس 1733، لأب فلاح من سيليزيا، ويبدأ حياته فلاحاً يُساعد والده في أعمال الحقل، ثم يتجه إلى التعليم في سن الثانية والعشرين، حينما يلتحق بجامعة جوتنجن Gottingen، لدراسة الرياضيات وعلم الفلك.

يقرر ملك الدنمرك فريدريك الخامس عام 1760، بناء على مشورة يوهان ديفيد ميخائيلس أستاذ اللاهوت المسيحي، وفقه اللغة العبرية بجامعة جوتنجن، إرسال بعثة علمية مشتركة إلى بلدان الشرق الأدنى، وجنوب الجزيرة العربية، وخاصة العربية السعودية، لتقصي الأخبار والمعلومات العلمية عنها، فاستدعى نيبور للانضمام إليها.

يركب في صباح اليوم الرابع من يناير 1761 الباخرة الدنمركية (جرينلند Greenland) خمسة علماء متخصصون في مختلف فروع المعرفة، مع خادمهم الدنمركي، وقد جمعهم أمر واحد، وحفزهم هدف صمموا على تحقيقه، مهما كانت الظروف والأحوال، مدفوعين بالأسطورة التي تحدثهم عن بلاد العرب السعودية Arabia Felix، فاتجهوا نحو عالم مليء بالمجاهيل والمخاطر. وقد وزعت أعمال وواجبات البعثة على أعضائها، فقد تألفت من خليط من الجنسيات، فضمت عالِمين دنمركيين، وآخرين ألمانين، وسويدياً واحداً، وجميع هؤلاء من الشبان اليافعين، إذ لم يبلغ أكبرهم سنّاً الرابعة والثلاثين، بينما لم يتجاوز أصغرهم الثامنة والعشرين⁽¹⁾.

(1) علي عفيفي علي غازي: (رحالة زاروا قطر (7) كارستن نيبور)، مجلة الدانة، العدد 45 (أكتوبر 2015)، ص 52، 53.

تتكون البعثة من علماء خمسة هم: البروفيسور بيتر فردريك كريستيان فون هافن Peter Friedrich Christian van Haven (دنمركي) متخصص في فقه اللغات القديمة والدراسات الشرقية، والدكتور كريستيان كارل كرامر Cristian Carl Kramer (دنمركي) متخصص في الجراحة وعلم الحيوان، والمهندس كارستن نيبور Carsten Niebuhr (ألماني) وقد أُنيطت به مسؤولية الدراسات الجغرافية والفلكية والرياضيات، والهر جورج ويلهلم بورينفند Herr Georg Wilhelm Baurenfeind (ألماني) وهو رسام أُنيطت به مهمة الرسوم الفنية وحفرها على النحاس، والبروفيسور بيتر فورسكال Peter Forsskal (سويدي) طبيباً للبعثة، ومتخصصاً في علم النبات⁽¹⁾. ولم يكن لأي من هؤلاء الرئاسة على الآخرين، فكل منهم له مؤهلاته ومكانته، وإذا كان لأحد منهم الفضل فهو لفورسكال وفون هافن لإجادتهما اللغة العربية، وبهذا قضت تعليمات الملك فريدريك الخامس، الذي طلب من كل منهم أن يعاون زملاءه، ولكن على أن يظل له ميدان عمله الخاص الذي سيُقدم عنه تقريراً عند عودته.

تُبحر الباخرة الدنمركية من ميناء كوبنهاجن، لترسو بميناء مرسيليا، ومنه إلى أسطنبول، حيث وصلتها في 30 يوليو 1761، فالإسكندرية في 26 من الشهر نفسه، وتُمضي البعثة حوالي السنة في مصر لدراسة أحوالها وآثارها، وليتعلم أفرادها اللغة العربية أيضاً، ثم بعد ذلك تُبحر من الإسكندرية عبر النيل متجهة إلى السويس، وفي 5 أكتوبر 1762 تتحرك البعثة من السويس إلى جدة، ومنها إلى مخا في اليمن.

تُصاب البعثة بصدمة بموت فون هافن باليمن في مارس 1763، وفي 13

(1) شريف يوسف: (اكتشافات الرواد والرحالين الغربيين في شبه الجزيرة العربية وأثر العرب في علم الجغرافية)، مجلة المورد، المجلد 11، العدد الثاني (صيف 1982)، ص 9.

يوليو يلحق به بيتر فورسكال في مدينة جرم Jerim، ورغم ذلك يزور نيبور مع من بقي من أعضاء البعثة صنعاء، ويقابلون أميرها، ثم يعودون إلى مخا لقضاء الصيف فيها. ومن مخا يُبحرون إلى بومباي في الهند، حيث توفي رسام البعثة بوربنفند، ثم لحق به فون كريمر في 10 فبراير 1764، فيقي نيبور العضو الوحيد، الذي وقع على عاتقه مهام البعثة وواجباتها، إلا أن همته العالية، وثقافته الواسعة، ودأبه المتواصل، وإرادته الحازمة، كل ذلك دفعه إلى إتمام الرحلة، وإنجاز ما يترتب عليها من أعمال واسعة المقاصد متشعبة الأغراض⁽¹⁾.

يُغادر نيبور بمفرده بومباي في 24 مارس متجهاً إلى سورات Surat فيدرس أحوالها وتجارها، ثم يقفل عائداً إلى بومباي، وكانت لديه الرغبة في زيارة الصين، لكن بينما كان بانتظار السفينة التي ستقله إليها، أصيب بالحمى والمرض مما جعله يُغير خطته في السفر إليها. وبعد أن يمكث نيبور في الهند أربعة عشر شهراً، يُقرر العودة إلى بلاده، فيمر بمسقط، ثم يتوجه عن طريق الخليج العربي إلى جمبرون (بندر عباس) ومنها إلى شيراز، فخرائب برسيبوليس، وبعد أن يقضى بها أربعة وعشرين يوماً توفي فيها خادمه، يُغادرها في 7 أبريل 1765 إلى بوشهر، حيث يُسافر بسفينة هولندية صغيرة إلى جزيرة خارج Kharg فيصلها في 31 مايو، على أمل أن تنقله سفينة إنجليزية إلى البصرة، في أوائل شهر يونيو.

تتقطع أخبار نيبور منذ وصوله إلى البصرة، حيث يرتدي الملابس العربية منذ أن وطئت أقدامه أرض العراق أو بلاد ما بين النهرين كما يُطلق عليها في الأدبيات الأجنبية، وينتحل اسم عبد الله، ويُغادر بغداد في 3 مارس

(1) علي عفيفي علي غاзи: (رحلة زاروا الإمارات - كارستن نيبور)، مجلة الإمارات الثقافية، العدد 46 (يونيو 2016)، ص 26-29.

1766، فيصل الموصل فماردين، ثم إلى حلب، ويذهب مع قافلة تجارية إلى إنطاكية ومنها إلى ميناء الإسكندرونه، وأخير يصل كوبنهاجن في 20 نوفمبر 1767. ويتزوج في عام 1773 بكريستيان صوفي بلومنبرج Cristiane Sophie Blumenberg، وهي فتاة تبلغ من العمر 33 عاماً، وكانت ابنة طبيب يعمل في خدمة الملك فردريك، وفي السنة التالية لزوجته نشر المجلد الأول من مذكراته.

تبتدئ حياة نيبور بالتهور والاضمحلال عند مطالبته بوظيفة كتابية في (ملدورف)، التي يسافر إليها مع زوجته وطفليه في صيف 1778، وبالرغم من أن نيبور كان ألماني الأصل والثقافة إلا أنه كان يحمل جواز سفر دنمركي، وكان شعوره بدنمركيته قوياً منذ دخوله في خدمة الملك فريديريك الخامس. وفي أواخر أيامه يُعين عضواً في المجمع العلمي الفرنسي، ثم يشتري أرضاً لفلاحتها، فيعود فلاحاً كما بدأ، وتوالت عليه النكبات فيُصاب بالعمى، وتتوفى زوجته في عام 1807، ثم يُصاب بكسر في ساقه، فيُصبح هذا الرحالة الجسور والسائح الجريء أعرج، وفي 26 أبريل 1815 تنتهي حياته، في (ملدورف) من مقاطعة (ديتماركن Dithmarchen) عن عمر يناهز 82 عاماً مكللة بالأعمال العظيمة⁽¹⁾.

الخط العربي

يعتبر الخط العربي فناً أبتكر ليكون وسيلة لتدوين وحفظ القرآن الكريم. وحافظت الأجيال المتعاقبة من الخطاطين على مر القرون على أنماط وأساليب الخطوط العربية، من دون أن تسعى إلى تعديل تلك الأشكال، بل حرصت على المحافظة على هذا التراث البديع. ويُعتبر الخط العربي فناً

(1) كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، محمود حسين الأمين (ترجمة)، (بغداد: شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، 1965)، الصفحات 5-16.

قائماً بذاته منذ عدة قرون، ولا يستطيع الخطاط إتقانه إلا على يد أستاذ خبير في الخط، وهو مُدرك لحقيقة أنه لا يستطيع تطوير هذا الفن، وأن كل ما يستطيع فعله هو محاولة الاقتراب من إتقانه.

بعد لقاء نيبور الأول مع إمام اليمن سمح للبعثة الدنمركية بالتنقل بحرية في مدينة صنعاء وانصرف نيبور إلى إكمال خريطته وسط حشود من الناس تحلقت حوله، وبعد الانتهاء من الخريطة نزل إلى السوق، وراح يُسجل أنواع البضائع الموجودة، وقود، فحم حجري، حديد، عنب، ذرة، زبدة، الملح والخبز، الذي تبينه النساء كما هي العادة في معظم الجزيرة العربية، وكانت هناك أيضاً سوق أخرى تُستبدل فيها الثياب القديمة بثياب جديدة وتعرض فيها بضائع تركية وفارسية وهندية، كذلك كانت هناك أعشاب وعقاقير وثمار مجففة كالإجاص، والإسكافيون والخياطون، والبنائون، ومجلدو الكتب والخطاطون⁽¹⁾.

يُشيد نيبور بروعة الفن الإسلامي في جامع الموصل الكبير، في رحلة عودته من الهند عبر الخليج العربي والعراق، فيقول: «تقع في وسط الساحة الفسيحة للجامع (الكبير في الموصل) بناية تُدعى القبلة أو المحراب الكبير، وهو كالمحاريب الأخرى الموجودة في بقية المساجد، ولكنها مبنية في حائط المسجد، وتُشير إلى اتجاه مكة، وأهميتها أنها تُساعد المسلمين في معرفة اتجاه القبلة وقت الصلاة. وهذا المحراب منحوت بكامله من المرمر تتجلى فيه روعة الفن الإسلامي، والنقوش التي تُمثل ورق العنب، وقد جدد بناء قسم من الجامع، وله شبابيك على هيئة شبكة من المرمر، ولم أرى في هذه الشبابيك زجاجاً، وسمك هذه الشبكة من المرمر نحو ثلاثة أصابع وقد نحتت

(1) سمير عطا الله: قافلة الحبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة العربية والخليج، (بيروت: دار الساقى،

نحتاً رديئاً. ولهذا الجامع أعمدة مثمثة الجوانب، نحتت من الحجر»⁽¹⁾.

يذكر نيبور أن مدينتي القاهرة وبغداد تشتهران ببيع الكتب، وأن مدينة بغداد كانت تشتهر في أيام الخلفاء العباسيين بالعلوم والنشاط الثقافى، أما اليوم فقد أهملت هذه الناحية وأصبحت البلاد في جهل مُطبق، وفي حالة أسوأ مما في مصر واليمن. فقد وجدت في بغداد عدداً قليلاً من الناس ممن يعرفون القراءة والكتابة. وإذ هناك في القاهرة مكان يشتري منه المسلمون كتباً قديمة فليس في بغداد محل كهذا أبداً. فإذا ما أراد أحد أن يقتني كتباً بغير أن يكلف نفسه عناء الاستساخ أو تكليف أحد به، فإنه ينتظر حتى يموت أحد الجامعين للكتب، وعندها تباع في السوق كما تباع الألبسة القديمة، وينادي عليها الدلالون للمزايدة على أثمانها. والأجنبي الذي يريد شراء مخطوطات عربية أو فارسية أو تركية عليه أن يذهب إلى القسطنطينية فإنها تُعد أحسن مكان لشراء الكتب، وذلك لوجود مكتبات كثيرة فيها حيث يستطيع النصارى، ولاسيما نصارى بلاد الشرق شراءها⁽²⁾. ويُقارن ذلك بالحال الذي وصل له تدهور العلوم عند العرب في عهده فيقول: «العلوم اليوم لا ترى من يُقيم لها وزناً فهي بالضد مما كانت عليه في عهود الخلفاء من لقائها كل رعاية وعناية، ثم إن الإعراض عنها في بغداد أكثر منه في القاهرة، واليمن، وأظن أنني لقيت ببغداد قليلاً من الناس يعرفون القراءة والكتابة، وفي القاهرة دكان قائم حتى اليوم يشتري منه المسلمون كتباً عتيقة، وليس في بغداد شيء من هذا، فإن أراد إنسان أن يقتني جملة من الكتب أو ينتسخها أو يستنسخها وجب عليه أن يتربص

(1) كارستن نيبور: (رحلة نيبور في العراق في القرن الثامن عشر)، محمود حسين الأمين (ترجمة)، مجلة سومر، المجلد 9، الجزء الأول (1953)، ص 271: كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 108، 109.

(2) كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 45.

موت بعض الناس من ذوي الكتب، فتحمل كتبه في المدينة كما تحمل الألبسة العتيقة، وينادى عليها بمن زاد؟ وكل أوروبي يريد، أن يشتري كتباً خطية عربية كانت أو تركية أو فارسية لا يجد لذلك مجالاً في غير إستانبول، ففيها نوع من دكاكين الكتب، ومنها يشتري الكتب النصارى الغربيون، وفي الأخرى نصارى الشرق»⁽¹⁾.

يلفت فن الخط العربي انتباه رحالتنا فنراه يرصده في المرحلة من رحلته بداية من نزوله بميناء البصرة وانتهاءً بمغادرته الأراضي العربية الإسلامية متجهاً إلى أوروبا، فيرصد كتابات من الخط العربي على الباب الوسطاني ببغداد، فكتب يقول: «نسخت كتابة منقوشة عليه (الباب الوسطاني) بتفصيل، يعلم بها أن الخليفة الناصر لدين الله كان قد أنجز هذا البنيان سنة 618 هجرية، أي سنة 1221م، وذلك مما يدل على قدم بغداد، وهذه الكتابة هي: بسم الله الرحمن الرحيم، (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم). أمر بعمارته سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة (على) كافة الأنام أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين، خليفة رب العالمين، وحجة الله عز وجل على الخلق أجمعين، صلوات الله وسلامه على آله الطاهرين، ولا زالت دعوة المدعي على اتباع الحق منازلها مناراً، والخلائق لها أتباعاً وأنصاراً، وطاعته المفترضة للمؤمنين أسماعاً وأبصاراً، وافق الفراغ منه سنة ثمان عشرة وستمائة، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين»⁽²⁾.

(1) كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مصطفى جواد (ترجمة)، في كتاب بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق للنشر المحدودة، 2007)، ص 34، 35؛ كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مصطفى جواد (ترجمة)، مجلة سومر، المجلد 20 الجزء الأول والثاني (1964)، ص 57.

(2) كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مجلة سومر، ص 50؛ كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، بغداد بأقلام رحالة، ص 13.

يجذب الخط العربي انتباه نيبور على جدران المدرسة المستنصرية ببغداد فيذكر أنه على طول البناية من جهة النهر كتابة طويلة يفهم منها أن الخليفة المستنصر بناها سنة 630هـ / 1222م، وإذا كان الناس العابرون للجسر متوافرين لم يكن انتساخي للكتابة متسنياً لي دون اجتذاب انتباه الناس إليّ فلذلك وكلت نسخها إلى ملا من الملائين، وقد قابلت ما نسخه بالأصل، ونقلته: «قد أمر بإنشاء هذه المدرسة الشريفة لطلاب العلم، وتسمى المدرسة العظمى دولة العز وأسعد الخلائق المحجة البيضاء عبد الله وخليفته في أرضه الخليفة أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين، أمتع الله المسلمين بإعزاز سلطانه وأيد دولته بطول حياته، وذلك سنة ستمائة وثلاثين (كذا). ولاشك في أن مختصر الكتابة جاء مصحفاً محرفاً ومضطرباً»⁽¹⁾.

ينتقل نيبور بعد ذلك لزيارة مسجد المستنصر بالله العباسي، الذي يصفه بأنه جامع عظيم في محلة سوق الغزل، فيلفت إلى وجود كتابة بالخط العربي منقوشة على بابه، فيقول: «فوق الباب يرى الرائي كتابة هذا نصها: أمر بعمله سيدنا ومولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين أعلى الله تعالى معالم الإسلام بهمة العلية، وأزهى وأرسى دعائم الإيمان بإيالته (الرضية) وذلك في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة»⁽²⁾.

(1) كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مجلة سومر، ص 50، 51؛ كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، بغداد بأقلام رحالة، ص 15، 16.

(2) كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مجلة سومر، ص 51؛ كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، بغداد بأقلام رحالة، ص 16، 17.

الخط الكوفي

يرصد نيبور كتابات بالخط الكوفي فوق مدخل تكية لدرائوش الطريقة البكتاشية ببغداد، والتي يُعرفها بأنها (عمارة عتيقة شاهقة)، الأمر الذي يدل على اهتمام الرحالة بفن الخط العربي، ومعرفته لأنواعه والاختلافات بينها، ومؤسس هذه التكية هو الخليفة الناصر لدين الله العباسي (575-622هـ) أقامها لزوجته سلجوقي خاتون بنت الملك العادل قلج أرسلان المتوفاة سنة 584هـ أي السنة التي أُرخ بها البناء، ويُعرف برباط الأخلاطية أو الخلاطية أو رباط الرملة. ويرصد نيبور فوق مدخل هذه التكية، «كتابة أصابها كثير من البلى والتلف وتخربت كثيراً، ولم يكن لأحد قراءتها في أعالي هذه البناية، كما تدور آيات من القرآن مكتوبة بخط كوفي كبير الحروف على الآجر، وقد أصاب أكثرها تلف بمرور الزمن المبيد، تلف لا يورث العجب، فليس من المعقول أن تبقى سالمة أشياء فخارية بعد ستمائة سنة، إلا أن رغبتني في وقف القارئ على حال هذه الكتابة والزخرفة والتزيين المتداخلة فيها حملتني على نقش أولها الذي هو أقل بلى من غيره. ونصه بحروف العرب المستعملة الآن، لتمثل نموذجاً من الكتابة الكوفية المحفورة على الآجر...، ولكي أقدم للقارئ نموذجاً من هذا الخط، وما يحتويه من الزخارف البارزة والمتداخلة في بعضها البعض، فقد استسخت مقدمتها فقط، والتي هي أقل تشويهاً من البقية: بسم الله الرحمن الرحيم، والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم ثلثة من الأولين، وقليل من الآخرين على سرر موضونة متكئين عليها (متقابلين)». ويلاحظ نيبور وجود كتابة لإحدى سور القرآن الكريم تحيط بالبناية كلها، وقد كتبت بحروف كبيرة بالخط الكوفي الجميل ويقطع من الطابوق. وقد عفى الزمن على معالم هذه الكتابة وتآكلت أيضاً. ولا عجب في ذلك إذ لا ينتظر أن تبقى

كتابة بحروف من الطين المشوي غير مخربة مدة ستمائة سنة⁽¹⁾. وفي دلالة على مدى وعيه وإدراكه للخط العربي كفن من الفنون التي أتقنها العرب والمسلمون نراه يعقب قائلاً: «إن العرب في الوقت الحاضر يكتبونها بهذه الطريقة لو طلب إليهم كتابتها»⁽²⁾.

يقارن نيبور بين الخط الكوفي الذي يراه في بغداد وبين خط كوفي آخر كان قد نقله من بلاد اليمن، فنراه يقول إن هذا النوع من الكتابة له تشابه كبير مع الكتابة التي استسختها في اليمن والمنشورة في اللوحة التاسعة في القسم الخاص بوصف الجزيرة العربية. يستنتج من هذا أن العرب في أزمانهم الغابرة عندما كان العلم مزدهراً تحت حكمهم تفتنوا في كتابة حروف لغتهم الهجائية أيضاً. ولو استمروا على طريقة كتابتهم هذه لوجد العلماء الغربيون صعوبات كثيرة في قراءة الكتب العربية ومخطوطاتها. والكتابة التي وجدت على غطاء وعاء من الفخار عثر عليه في تخت كسرى، والذي نشرت له صورة في كتاب أسفار آيفز Ives Reisen هي من هذا النوع، وقد أكد الذين وجدوا هذا الإناء وقدموه للرحالة صمويل آيفز Samuel Eves أن الكتابة التي عليه هي بالخط الفارسي القديم، أي الخط الفرثي (بارثية)⁽³⁾.

يوصل نيبور رسده لكتابات الخط العربي في بغداد، فعندما يزور ضريح زبيدة زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد، التي يقول عنها: «إنها امرأة مشهورة في تاريخ العرب»، وكانت وفاتها سنة 216هـ / 831م، وفي 1131هـ / 1718م دفن حسن باشا وزوج عائشة بنت مصطفى باشا إلى جانب زبيدة، ووضع على قبرها رخامة كبيرة كتب عليها: «إلى روحها الفاتحة، هذا

(1) كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 36.

(2) كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مجلة سومر، ص 53؛ كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، بغداد بأقلام رحالة، ص 22.

(3) كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 37.

قبر المرحومة المغفورة الموقفة للخيرات الجارية ست زبيدة بنت جعفر بن منصور الدوانيقي، وزوجة هارون الرشيد من خلفاء بني العباس، وتوفيت سنة مائتين وست عشرة، إلى روحها الفاتحة، هذا قبر المرحومة المغفورة الصالحة العفيفة الساعية إلى الأفعال المرضية، والأعمال اللاتي تستجلب المرضاة الإلهية عائشة خانم بنت المرحوم مصطفى باشا وصاحب السلطان محمد خان عليه الرحمة والرضوان، وزوجة الدستور المكرم والوزير الأفخم والي بغداد دار السلام أبو الخيرات حسن باشا، يسر الله له الخير كما يحب ويرضى ويشاء، وتوفيت في شهر رمضان سبعة وعشرين ليلة القدر في سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف»⁽¹⁾.

ينتقل نيبور بعد ذلك إلى مدينة الكوفة، ونراه مهتماً كذلك بالخط العربي، فيستنسخ كتابة بالخط الكوفي الجميل عن شاهد قبر يعود إلى شخص مدفون في مسجد الكوفة اسمه جعفر بن معمر. وتبتدئ الكتابة على الوجه (أ) بسورة الإخلاص: بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. هذا قبر جعفر بن معمر رحمه الله وغفر له، صلى الله على محمد وعلى آل محمد. (ب) آية الكرسي... (ج) اللهم صل على محمد وآله. (د) والله ولي التوفيق.⁽²⁾

يرصد نيبور بمدينة الموصل كتابات بالخط الكوفي مزخرفة على جدران الجامع الأحمر⁽³⁾، الذي يقول عنه: «إنه جامع كبير قديم يُسمى الجامع

(1) كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مجلة سومر، ص 53؛ كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، بغداد بأقلام رحالة، ص 23، 24.

(2) كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 52.

(3) يعرف هذا الجامع كذلك بالجامع المجاهدي أو جامع الربيض، أو جامع الخضضر. وقد شيده مجاهد الدين قيمان الرومي أحد مماليك الأتابكين سنة 572 هـ/ 1176 م. كارستن نيبور: (رحلة نيبور في العراق في القرن الثامن عشر)، مجلة سومر، ص 271.

الأحمر، وقد وجدت في داخله تاريخاً وهو سنة 576 للهجرة، ولم أستطع قراءة اسم بانيه لأن الكتابات كانت غير واضحة، ولقد قيل لي إن بانيه هو مجاهد الدين، ولعل مجاهد الدين هذا، هو مجاهد الدين قيمان الذي ورد ذكره في تاريخ العالم العام، ولا يستبعد أن قام بينائه بأمر من سيف الدين غازي بن مودود الذي توفي في هذه السنة. وفي هذا الجامع كتابات كثيرة ومن ضمنها كتابات بالخط الكوفي، وكذلك كتابات بالخط العربي المؤلف اليوم، وجميعها آيات من القرآن. وهذه الكتابات والنقوش النباتية والتي تمثل أوراق الكرم والتزيينات الأخرى التي تغطي جدران الجامع قد عملت من الجص بطريقة جميلة جداً قلما يجد مثلها المرء في هذه البلاد»⁽¹⁾

يوصل نيبور رسده للخط العربي في الموصل على قبر يدعى صاحبه يحيى بن القاسم، أو كما يطلق عليه البعض (أبو القاسم). فيقول: «لاحظت أن الجدار المحيط بالقبر من الداخل مكسو بقطعة عريضة من الرخام مزينة بنقوش من أوراق الكرم في غاية الدقة والإتقان وحفرت عليها كتابات مُلئت بالجبس، ويولي المسلمون اهتماماً كبيراً لأمثال هذه التزيينات والنقوش عن طريق الكتابات، كذلك وجدت كتابات ونقوشاً محفورة على الآجر فأثارت في الدهشة والاستغراب، ذلك لأنها جميلة التزيينات المعمارية المؤلف في بابل وبغداد اللتين يندر فيهما وجود الرخام والحجر، ولا يمكن الحصول عليهما حتى بالمال، ولذا فقد جلبت انتباهي الشديد صناعة النقش وحفر الكتابات على الآجر في الموصل، واعتبرت وجودها أمراً غريباً، خاصة وأن الرخام في هذا البلد متوفر جداً، كذلك رأيت هذا النوع من الآجر المنقوش قد استعمل لتزيين مداخل البيوت»⁽²⁾.

(1) كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 109، 110.

(2) كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق، ص 110، 111؛ كارستن نيبور: (رحلة نيبور في العراق)، مجلة سومر، ص 272.

جان روسو

يولد القنصل الفرنسي جان باتيست لوي جاك بارون روسو Jean Batiste Louis Jacques Baron Rousseau، في أسرة روسو، التي قدمت لفرنسا خدمات جلييلة في الشرق، خاصة في مجال العمل الدبلوماسي بصفة قناصل. ويرجع أصل هذه الأسرة إلى أنطوان روسو، وهو صاحب مكتبة في باريس، عاش في مطلع القرن السادس عشر، واعتنق ابنه المذهب البروتستانتي، فاضطر إلى الابتعاد عن فرنسا؛ والتجأ إلى جنيف، وهناك مارس مهنة العائلة، وهي بيع الكتب، إلى أن توفى في سنة 1570، وكان اسم حفيده جاك جد رحالتنا، وعم جان جاك روسو الفيلسوف المشهور. وتعاطى لوي جاك روسو تجارة الجواهر، ثم عاد إلى فرنسا لممارسة مهنة العائلة المتوارثة، وهي بيع الكتب، لكن حب المغامرات والأسفار كان يُداعب فكره، فانضم في عام 1705 إلى سفارة الملك الفرنسي لويس الرابع عشر (1638-1715) إلى الشاة الفارسي حسين الصفوي (1694-1722)، برئاسة السيد فابر. وعاد جاك روسو بعد ذلك ومكث في إيران، وصار مع الأيام شيخ الجوهريين، العاملين في خدمة التاج الفرنسي، وتوفي سنة 1737 عن عمر يناهز الرابعة والسبعين، بعد أن خلف ابناً وحيداً سماه جان.

ينتقل جان روسو بعد رحيل أبيه إلى بندر عباس، حيث ينال قسطاً من الربح من عمليات تجارية، وينجح في استعادة ثروة العائلة، ثم ينتقل إلى البصرة واطعاً نفسه في خدمة دولته، فيُصبح مساعداً للحسابات في شركة الهند الشرقية الفرنسية (1762-1770)، وتُكلفه حكومته بمهام مختلفة، تجارية وسياسية، فيتمها بنجاح، وفي عام 1772 أنيطت به مهام القنصلية الفرنسية في بغداد والبصرة، وبعد احتلال الفرس للمدينة الأخيرة في سنة

1776، يُقرر العودة إلى فرنسا؛ ليطالب برواتبه المتأخرة، وبالتعويض عن الخسائر التي لحقت به، وكان يطيب له أن يسافر مرتدياً الأزياء الشرقية، وكذلك زوجته، فلما وصل إلى بلده صار موضوع حديث الناس، ونال رتبة قنصل فرنسا في البصرة، إضافة إلى مكافأة مجزية، ثم عاد إلى بغداد فوصلها في عام 1782، وبعد سنتين انتقل إلى البصرة، ولما احتلت القوات الفرنسية مصر سنة 1798، حلت على روسو نقمة العثمانيين، إذ نُهبت أمواله، وقيدوه بالأغلال، وساقوه إلى ماردين، ورفض بكبرياء اقتداء نفسه، حتى هب لنجدته سليمان باشا الكبير، والي بغداد (1780-1802) فخلصه بعد أن قضى أحد عشر شهراً في القيود.

يعود جان روسو مرة أخرى في سنة 1803، ممثلاً دبلوماسياً ووكيلاً تجارياً في بغداد من قبل الحكومة القنصلية (1799-1804)، وفي السنة التالية يُكلف بأن يُمهّد للعلاقات مع إيران، وأن يعيد المعاهدة بين هذا البلد وفرنسا، بينما يتم تعيين ابنه قنصلاً في البصرة في 27 فبراير 1805. وفي هذه المدة يكتب جان روسو مؤلفه: (رحلة من حلب إلى الموصل عن طريق الجزيرة)، بدأها في 10 أبريل 1807، وأتمها في شهر مايو من السنة نفسها. ثم يُعين سكرتيراً ثانياً في المفوضية الفرنسية بطهران في 14 مايو 1807، فيكتب: (رحلة في فارس عن طريق بغداد). وفي يناير 1808 يُرسل إلى حكومته مخططاً لمرور الجيش الفرنسي عبر الدولتين العثمانية والفارسية، مع ملاحظات عن الأمكنة والشعوب، وكان التقرير مقدماً إلى السفير الجنرال كاردان، ويحتفظ أرشيف وزارة الشؤون الخارجية بمخطوطة هذا التقرير. ولم يمكث روسو طويلاً في طهران، إذ يبلغه خبر وفاة والده في حلب في 12 مايو 1808، فيقرر السفر إليها للوقوف إلى جانب أمه، فيبدأ رحلته التي استغرقت الفترة بين 22 أكتوبر إلى 23 ديسمبر 1808، ويكتبها بعنوان

(رحلة إلى الجزيرة العربية). ويطلع كذلك كراساً بعنوان (معلومات عن الوهابيين) جمع معلوماته أثناء هذه الرحلة، ونشر سنة 1808 كتاباً بعنوان (وصف باشوية بغداد)، وفي هذه الرحلة يجمع روسو نحو 500 مخطوط من المخطوطات العربية القديمة بتكليف من السيد (أوفاروف)، لحساب قيصر روسيا، وقد وصفها جان روسو في كتابه (بحث في المذاهب الإسلامية الأكثر شهرة: الوهابية والنصيرية والإسماعيلية)، الذي طبع في باريس ومارسيليا سنة 1818، وهي تلك المخطوطات التي تزين اليوم خزانة الأكاديمية الملكية في سان بطرسبرج.

يُعين جان روسو في السنة نفسها، أي في عام 1808، قنصلاً عاماً في حلب مكان والده الراحل، فيبقى في هذه الوظيفة إلى سنة 1814، إذ يدعى ليشغل الوظيفة ذاتها في بغداد، وفي هذه المدة نشر كتابه (لمحة عن بلاد فارس القديمة والحديثة، وتتبعها جداول خاصة بجغرافية هذه المملكة وتاريخها)، طبع في مارسيليا سنة 1818، وألحقه بكتاب عنوانه (مقالات متفرقة في التاريخ والأدب الشرقي)، يتضمن مقالة في وصف باشوية حلب. ويُعد جان روسو في وقت لاحق خرائط بلدان آسيا الصغرى، التي يهتم بوصفها في مؤلفاته. وفي سنة 1824، يُعين قنصلاً عاماً، وقائماً بالأعمال لدى البلاط الملكي في طرابلس الغرب، وبعد سنتين يجري بينه وبين الباي، زعيم المغرب العربي، نقاش حاد، فيغضب جان روسو، ويركب سفينة فرنسية كانت راسية في الميناء، وإزاء هذا الموقف المتشدد يضطر الباي للرضوخ. وفي سنة 1927 تنتشر في العاصمة الفرنسية باريس إشاعة عن وفاته، وتسرع الصحف والجرائد بنشر سيرته، ومن بينها (مجلة الجمعية الجغرافية)، وتقوم الحكومة الفرنسية بتعيين السيد ميشال خلفاً له، والذي كان قنصل فرنسا في قبرص، وترسل موظفاً حاملاً رسائل رسمية؛ لكي يتسلم القنصلية

الفرنسية في طرابلس مؤقتاً ريثما يصل السيد ميشال، واذ بالمفاجأة أن جان روسو حي يُرزق، لكن المبعوث العنيد أبي إلا أن يعمل بموجب التعليمات الصادرة له، فوضع يده بالقوة على البناية ونزل فيها، ولم يخرج منها إلا بعد وصول أمر صريح من وزارة الخارجية، التي اهتمت إلى الحقيقة على إثر رسائل عديدة أمطرها بها جان روسو، الذي ينجح في شهر يوليو 1827، في أن يُصدر جريدة بعنوان (الباحث الأفريقي) وينشر فيها عدداً من المقالات بقلمه. ويعيد نشر هذه المقالات في مجلة الجمعية الجغرافية في أكتوبر 1827، حيث كان عضواً مراسلاً لها، إذ نشرت له رسائل مثيرة، حررها من طرابلس أيضاً، تدور حول أفريقيا الوسطى.

يتوفى لوي جاك روسو في سنة 1831، بعد أن يُرقى إلى رتبة بارون، ويُعين عضواً في أكاديمية الرقم والأدبيات Academie des Inscriptions et Belles Lettres، ويترك عدداً من الأولاد، عرف أحدهم المولود في حلب سنة 1811، لأنه خدم في الجيش الفرنسي، وعين بعد ذلك قتيلاً فخرياً في بروسيا، ثم في جدة مع الإقامة في دمشق، مع الأمير عبد القادر الجزائري (1808-1883).⁽¹⁾

يكتب جان روسو كتابه (رحلة إلى الجزيرة العربية)، والذي يُعد مذكرات طريق، أي ملاحظات سريعة سجلها خلال أيام سفره، وبالتالي نص رحلته هذا ليس علمياً أو تاريخياً بالمعنى الدقيق، بل هو مذكرات سريعة يُستشف في بعض صفحاتها دوره الاستخباراتي، فهو يُعد مخططاً لمرور الجيش الفرنسي إلى الهند عبر الدولتين العثمانية والفارسية؛ لينافس التغلغل البريطاني في الشرق، ويُقدم بعض تقاريره لجهات عسكرية قبل إرسالها إلى الجهة

(1) لوي جاك روسو: رحلة إلى الجزيرة العربية سنة 1808، بطرس حداد (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2010)، ص 12-17.

المدنية المختصة أي وزارة الشؤون الخارجية. كما اهتم بالقبائل العربية فذكر أسماء أكثر من مائتي قبيلة، وركز على قبيلتي عنزة وعقيل، واهتم كذلك بالخيول العربية، إذ كان معجباً بها، فذكر أسماء أشهر السلالات وأنسابها وأعطى وصفاً مختصراً وجميلاً لها. وترك أسماء جداول وفتوات عديدة مر بها، ووصف بادية الشام وسكانها وعاداتهم. وما يعيبه أن بعض معلوماته استمدّها من العوام من أصدقائه من مرافقي الطريق، وبالتالي تفتقر إلى العلمية، إلا أنه بصورة عامة معتدل في كلامه، وفي حكمه؛ فقد أعجب بالقبائل العربية، وأحب مناخ الجزيرة العربية، وقال عنه إنه صحي رغم حرارته العالية في فصل الصيف، لكن له شطحات أحياناً، ورغم ذلك فالرحلة مفيدة وفيها معلومات جيدة. يُوصف أسلوب جان روسو في الكتابة بالركاكة والضعف، ولعل سبب ذلك أنه نشأ وعاش حياته في آسيا الصغرى، حيث تنتشر اللغات المختلفة: العربية والتركية والفارسية، ولعله كان يألف هذه اللغات أكثر من لغته الفرنسية.⁽¹⁾

الخط العربي

يُميز جان روسو الخط العربي على مثذنة طيبة الإمام بريف حماة، وهي جزء من جامع مقام الإمام علي، والذي بني والمثذنة معاً عام 1002هـ/ 1593م، فيكتب يقول: إن مثذنة طيبة لا تزال قائمة، وهي مربعة الشكل، ينتهي أعلاها بقوس حاد، رأيت في قسمها الأعلى كتابة غير مؤرخة بما معناها: (ليلهم الله الخيرين والصالحين الحنان والرحمة نحو الفقراء والمساكين).⁽²⁾

ينتقل جان روسو إلى قصور الأخوين، فتتأكد معرفته بالخط العربي وقواعده، إذ يكتب يقول: هناك قوس قائم على دعامتين مرتفعتين في وسط

(1) لوي جاك روسو: مرجع سابق، ص 5-7، 9-11.

(2) المرجع السابق، ص 159.

الساحة، وعلى القوس كتابة بحروف عربية زال بعضها، استطعت أن أقرأ: (... مسكن السعد لسعيد بن جمال الدين)، وعلى خطوات قليلة مقابل هذا القوس يوجد ما يشبه القبو يعلوه سقف عريض خسف من الزمن، وفي ظني أنه كان خزاناً للماء. ويلاحظ وجود بقايا شرفه إلى يسار باب المدخل، لا تزال أقواسها قائمة، وهذه الأقواس تستند على أعمدة مربعة يشكلان من جهة خطين متوازيين متقابلين للواجهة الشرقية، ومن الجهة الأخرى خط واحد أمام واجهة الجنوب، وعلى بعد مسافة قليلة يوجد عامود على حدة قريب من العامود الأخير، وفي أعلاه كتابة بالخط الكوفي لم أستطع في أول الأمر تمييز حروفها لارتفاع موقعها، ثم تمكنت بعد ذلك، بعد أن رفع العرب المرافقين لي، الحجر القائم أمام الكتابة، فقرأت ما يلي: (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، ومحمد رسوله، شيدت هذه المدينة بأمر عبد الله هشام أمير المؤمنين. وهذا بناء أقامه أهل حمص على يد سليمان بن عبيد في السنة العاشرة).

أما القصر الثاني، فهو أصغر من الأول بقدر النصف، أي نحو مئة خطوة، جدرانه عريضة، وعالية بما يناسب البناء، إنه مشيد بحيث إن الباب ليس له غير باب واحد من جهة الغرب، يُقابل باب العمارة الكبير، توجد كتابة عربية باللون الأحمر فوق الباب من الداخل، والكتابة قد طُمست معالمها، لذلك لم أستطع قراءتها. هناك مئذنة مبنية مربعة الشكل قرب الأبواب بين القصرين، لا تزال قاعدتها موجودة وتحيطها الأنقاض. إن الكتابة المنقورة في الحجر في داخل القصر الكبير، التي نوهت بها كما مر بنا تذكر اسم مدينة يظهر أنها كانت معتبرة طالما أمر ببنائها أحد الخلفاء المشهورين، لكني لم أجد أي أثر يدل على وجود قصور الأخوين، مما جعلني أستنتج بأن هذه الكتابة حملت إلى القصر من مكان آخر، من الرصافة مثلاً، تلك المدينة التي شيدها هشام ذاك الذي -على ما يذكره المؤرخون

العرب- كان يملك من أصائل الخيل أربعة آلاف رأس لاستعماله الخاص، ولكن ماذا نقول عن هذين القصرين المنعزلين اللذين لم يذكرهما أي من الجغرافيين، أيكونان حقاً من عمل هذين الأخوين اللذين رويت أسطورتهم نقلًا عن الأعراب، أم هما مخزن عتاد أراده الخلفاء من أجل تسهيل عملية قطع الصحراء؟ الشيء الأكيد أنهما عمل يرجع إلى العهد الإسلامي، فالمثدنة التي لا تزال منتصبة، ولو مبتورة، هي أكبر دليل على ذلك، وفي نهاية الأمر، فإن بقايا القصرين لا تدل على قدمية موغلة في الزمن، بل في أكثر الاحتمالات أنها تعود إلى صدر الإسلام لا أكثر.⁽¹⁾

الخط الكوفي

يلحظ جان روسو الخط الكوفي على النقود، فيكتب يقول: «تجولت بين خرائب الكرخ القديمة التي تشاهد بين الكاظم وبغداد، على مسافة قليلة من نهر دجلة، هذه المنطقة كانت ضاحية كبيرة لعاصمة الخلفاء، عامرة بالسكان، ومنهم النصاري، وكان موقعها جميلاً جداً، بحيث إن الشاعر الخاقاني⁽²⁾ Khakhani، يصفها وصفاً ممتعاً في نص رحلته إلى العراقيين التي كتبها شعراً، لكن هذا الموضوع لم يعد اليوم غير أكمات من تراب، يذهب إليه الأعراب فيحضرون عن أشياء مفيدة من أدوات منزلية، وأثاث ومواد أخرى؛ بل يعثرون أحياناً على ميداليات (نقود) مكتوب عليها بالخط الكوفي».⁽³⁾

(1) لوي جاك روسو: مرجع سابق، ص 156-158.

(2) أفضل الدين إبراهيم بن علي الشرواني، شاعر فارسي من القرن الثاني عشر الميلادي، يشتهر بصعوبة أشعاره وإخفاؤه معانيها، وأسلوبه الغامض، له مثنوي طويل أسماه (تحفة العراقيين)، وصف فيه حجه إلى مكة المكرمة باللغة الفارسية. ولد في مدينة شروان عام 513هـ/ 1120م، وتركه أبوه في سن مبكرة فاهتم به عمه، وتولى تنشئته وتربيته، وتوفي خاقاني عام 595هـ/ 1199م في سرخاب بالقرب من تبريز، ودفن بمعزة الشعراء. ويكيبيديا الموسوعة الحرة، خاقاني، (تمت الزيارة بتاريخ 6 يونيو 2017).

(3) لوي جاك روسو: مرجع سابق، ص 46.

كلوديوس جيمس ريج

يولد الرحالة الفرنسي كلوديوس جيمس ريج Claudius James Rich (1787 - 1821) في 28 مارس 1787، على مقربة من ديجون من أعمال بوجوندي في فرنسا، ثم ينتقل برفقة أسرته وهو طفل إلى بريستول، في إنجلترا، حيث يقضي السنوات الأولى من حياته برعاية والديه. وتظهر عليه أمارات النبوغ منذ نعومة أظفاره، فأثناء مراحل الدراسة الاعتيادية تلقى مبادئ اللغتين اللاتينية واليونانية، وتعلم لغات عديدة من دون مُعلم، مُستعيناً بالكتب، ولما بلغ الثامنة أو التاسعة من عمره عثر على مخطوط عربي في خزانة أحد جهاء بريستول، فساورته رغبة شديدة بالوقوف على هذه اللغة، فكان ذلك الحافز الذي وجه الرغبة الملحة التي كانت تختمر في ذهنه، والتي وطد العزم على تحقيقها، وهي دراسة العلوم الشرقية، التي كان لها الأثر الفعال في توجيه حياته المقبلة، فقد تمكن بواسطة كتاب في النحو، وقاموس وبعض المخطوطات التي استعارها من المستر فوكس في بريستول من إتقان هذه اللغة العسيرة قراءة وكتابة، وأن يتخاطب بها بسهولة ودلاقة كبيرتين، حتى إذا ما بلغ الخامسة عشرة من عمره، قاده هذا التوجيه الفكري الراسخ في ذهنه إلى المثابرة على تحقيقه، بلا ملل، وإلى أن يُحرز تقدماً بارزاً في لغات شرقية عديدة، بينها العبرية والكلدانية والفارسية والتركية.

تشير براعة ريج الفائقة في هذا المسلك الدراسي غير المطروق اهتمام معارفه الأقربين، فقدمه الدكتور مارشان، إلى الدكتور رايلند، أحد أعلام رجال اللاهوت في بريستول، فتمكن من إنماء علاقته بعدد آخر من رجال الأدب، كان أخصهم المستر فوكس، الذي ظل ريج يذكره على الدوام بود

خاص وعرفان بالجميل، إذ بفضل توجيهاته وإشاداته ومكتبته تمكن ريج من إحراز التقدم الذي بلغه في دراساته الشرقية.

يدله الاتجاه الذي انصرفت إليه دراسته، مثلما دل غيره، على أن الهند ستكون خير مرشح لإظهار نبوغه في المستقبل، ففي عام 1803 تمكن أحد أصدقائه المهتمين به من التوسط له لدى شركة الهند الشرقية البريطانية⁽¹⁾ The East India company؛ لتعيينه طالباً حريباً في الخدمة العسكرية، وعندما أعلمه هذا الصديق بتعيينه مبدياً أسفه لأنه لم يتمكن من أن يجد له منصباً خيراً من هذا، أظهر ريج اعتماده على نفسه فاندفع يقول بسرور: «دعني فقط أصل إلى الهند، واترك الباقي إلي». هكذا أصبح ميدان العمل الواسع الذي كان يجول في مخيلته في متناول يديه، وراحت تملأ ذهنه الخيالات النيرة، التي تلوح عادة لأنظار آمال الشباب، فأسرع إلى لندن، وراجع دائرة الهند لإتمام الإجراءات الضرورية، التي كان عليه أن يتمها قبل تسلّمه مهام وظيفته.

يكتب روبرت هول رسالة بتاريخ 30 ديسمبر 1803، من شيفورد بالقرب من كمبردج، إلى صديقه السير جيمس ماكنتوش، يظهر فيها ما كان ريج

(1) مجموعة من شركات عدة لممارسة التجارة مع الهند والشرق الأقصى، تأسست في أواخر القرن السادس عشر لمزاحمة الشركات الهولندية، وقد وقعت الملكة إليزابيث الأولى وثيقة إنشائها في 31 ديسمبر 1600. وكان عدد المساهمين بها 125، ورأس مالها 172 ألف جنيه استرليني، وعن طريق هذه الشركة استطاعت بريطانيا أن تسيطر على الهند وبنما والملايو والخليج العربي. أحمد خليل عطوي: دولة الإمارات العربية المتحدة. نشأتها وتطورها (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، 1988)، ص 28؛ علي عبدالله فارس: شركة الهند الشرقية البريطانية ودورها في تاريخ الخليج العربي 1600-1858، (الشارقة: المسار للدراسات والاستشارات والنشر، 1997)، ص 37-39؛ هنري فوستر: هنري فوستر: نشأة العراق الحديث، سليم طه التكريتي (ترجمة)، (بغداد: الفجر للنشر والتوزيع، 1989)، ج 1، ص 56؛ Hoskins. H.L.: British routes to India. (London: Longmans: 1928)، pp. 5, 6. Green. 1928). علي عفيفي علي غازي: الصراع الأجنبي على العراق والجزيرة العربية في القرن التاسع عشر. (بيروت: دار الراغبين للطباعة والنشر والتوزيع، 2015)، ص 11، 12.

يتركه في نفوس المتصلين به في هذه الحقبة المبكرة من حياته. إذ كتب يقول: «اسمحو لي قبل أن أختتم رسالتي أن ألفت اهتمامكم إلى سيد شاب يُدعى ريج، الذي سيرافقكم في نفس الأسطول الذي سيُقلكم إلى بومباي كطالب حربي. إنه من أهالي بريستول، وقد كان لي السرور بمقابلته مؤخراً، وهو شاب فوق المستوى المعتاد، تمكن بدون مساعدة أو بالقليل منها من تعلم لغات الشرق، فأتقن العبرية والكلدانية والفارسية والعربية، بالإضافة إلى اللاتينية والفرنسية، مع بعض الوقوف على اللغة الصينية، التي بدأ يحل رموزها، وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره. وهو اليوم في السابعة عشرة من العمر، تساوره رغبة ملحّة للسفر إلى الهند، ليتاح له الانغمار في ميّله الشديد إلى الآداب الشرقية، ولذلك وبعد مشاق عديدة تمكن بالأخير من الحصول على منصب طالب حربي. إنه شاب من عائلة كريمة ذو شخصية وحادق عظيمين، ويدعى كما بينته لكم على ما أظن ريج، وإذا وجدتم من المناسب منحه شرف التعرف إليكم، فإني على ثقة من أنه سوف لا يجعلكم تدمون على عطفكم وتلطفكم». يُسند إليه المستر باري مدير إدارة شركة الهند الشرقية البريطانية، في عام 1803، منصب كاتب التحريات؛ لمجرد تقرير قدمه إليه المستر ويلكنس عن براعته العجيبة باللغات الشرقية، لا لغرض خاص أو لمجرد معرفة شخصية.

يلفت ريج أنظار السير تشارلز ويلكس Charles Wilkes، المعروف بعلو كعبه في لغات الشرق، وينتبه إلى مقدرته وحنقه في اللغات الشرقية، ولم يلبث أن قدمه لأعضاء مجلس الإدارة كشاب يحمل من النبوغ الفريد النادر ما يجعله يُشرف أية مهمة يضطلع بها تحت رعايتهم. وبناء على هذه التوصيات يعينه إدوارد باري Edward Barry في وظيفة كاتب تحريات في حكومة بومباي، وهكذا تغيرت وجهته من الخدمة العسكرية إلى الخدمة المدنية،

ولأجل أن يتمكن من إتقان اللغتين العربية والتركية اللتين سبق أن أحرز فيهما تقدماً ألحق بسكرتارية المستر تشارلز لوك Charles Lock، الذي كان في طريقه إلى مصر كقنصل عام للحكومة البريطانية، وقد حفظت له وظيفته خلافاً لما اعتادته الشركة خلال اضطراره بهذه المهمة كمن تسلمها فعلاً في الهند. ويبحر ريج في مطلع عام 1804، على ظهر سفينة شحن تدعى (هندستان) للالتحاق بالمستر لوك في البحر المتوسط، ولكن هذه السفينة تحترق لسبب ما بخليج روماس في إيطاليا، فيلتجئ ريج إلى شاطئ قاتالونيا مع الملاحين، وبعد إقامة طويلة في إيطاليا يتقن خلالها اللغة الإيطالية، ويدرس الموسيقى، ذلك الفن الذي ظل يولع به طوال حياته، يستأنف سفره إلى مالطة، بمعاونة صديق له من بريستول. وقد حدث أن توفى صديقه المستر لوك في الطريق إلى مصر قبل تسلمه مهام منصبه، وعندئذ سمح مجلس المديرين لريج مسترشداً بأراء المستر ويلكنس القيّمة، بالتوجه من مالطة إلى إستانبول ماراً في طريقه بجزائر اليونان. وقد أقام ريج مدة في إستانبول، ومنها انتقل إلى أزمير، وهناك انخرط في مدرسة مع الشبان الأتراك؛ لإتقان اللغة التركية ودقائقتها قراءة وكتابة، والتعمق في اكتساب العلوم الإسلامية، وقام خلال هذه المدة بسفريات مهمة متعددة في آسيا الصغرى، ثم عين معاوناً للكولونيل إدوارد ميسيت، القنصل العام البريطاني بمصر (1804-1815)، فسافر إلى الإسكندرية بطريق قبرص. يستفيد ريج من إقامته بمصر في إتقان اللغة العربية ولهجاتها المختلفة، وفي الوقت نفسه كان يقضي أوقات فراغه بالتمرن على الفروسية، واستعمال السيف والرمح، وعندما توفى المستر لوك، قرر أن يكون سفره إلى الخليج براً، فبارح مصر متنكراً بزى مملوك، وهو مجهز بقلمه وبعين فنّان، وبالشخصية والشجاعة اللتين يحتاج إليهما المسافر. فلقد اكتسب من البراعة بلغات

الشرق وعاداته قدراً، بحيث تنكر بزي تركي من كرجستان، فتجول في معظم أنحاء فلسطين وسورية، واعتماداً على براعته بلغة الترك وأطوارهم، وأقام بدمشق عدة أسابيع بين الحجاج عندما كانت قافلة الحج الشامي محتشدة فيها بطريقها إلى مكة، من دون أن يرتاب به أشد المتعصبين المسلمين يقظة وشراسة، فدخل المسجد الحرام، وهذا عمل كان يومئذ يكلفه حياته لو انكشف أمره بأنه مسيحي. ومن حلب قصد البصرة عن طريق ماردين وبغداد، ومنها أبحر إلى بومباي فبلغها في أوائل سبتمبر 1807.

يحتفل ريج بزواجه في 22 يناير 1808، وبعد ذلك بمدة وجيزة يسافر إلى مقر مقيمته التي كانت تضم بغداد والبصرة، فأقام ببغداد حيث مقر الباشا، وحيث يمكنه موقعها المتوسط من إدارة شؤونه السياسية مع الباشوية والحصول على أنباء ما كان يدور في أوروبا في تلك الحقبة المليئة بالحوادث التي كان ينتظر أن يغزو فيها نابليون إنجلترا والهند، وبفضل روحيته العالية، وبعد نظره في الشؤون السياسية، ووقوفه التام على العادات الأهلية، ووافر كرمه، اكتسب بسرعة فائقة الاحترام العميق من الحكومة المحلية والأهلين معاً. وبظل مقيماً بريطانياً في بغداد في الفترة (1808-1821)، حيث يعمل بكل قواه، ويبدل المال بسخاء من أجل هيبة المقيمة، وترسيخ الوجود البريطاني في العراق، تجول في العراق وزار آثارها، اصطدم بالوالي المملوكي داود باشا والي بغداد (1817-1831).⁽¹⁾

تنشب في عهد مقيمته ثورات حكومية، وتحصل تبديلات بين الباشوات، وقد تمكن المستر ريج بفضل أخلاقه العالية أن يمنح الحماية في بيته لكثير ممن كانت حياتهم في خطر من جراء الانقلابات السياسية في ظروف غير اعتيادية أحياناً، وحتى أنه كان من حين إلى آخر يمنح هذه الحماية لعائلات

(1) لوي جاك روسو: مرجع سابق، ص 31.

الجانب المخدول التي ما كانت لتتخلص لولا هذا الملجأ الذي لم يكن يجزؤ أحد على خرق حرمة، وكان من دواعي ارتياحه أن يرى حوله مفعول عدالته الرسمية، وحسن نيته، وأحياناً لم يكن الناس يقيمون وزناً لوعود باشواتهم وأعيانهم، إلا إذا كانت مدعومة بضمانه. ولقد قضى حوالي ست سنوات ببغداد ولا رفيق أوروبي له سوى زوجه والمستر هاين جراح المقيمة الذي كان معاوناً له أيضاً، فكان يقضى أوقات فراغه من أعماله الرسمية في تتبع دراساته المحببة له، فجمع المصادر اللازمة لكتاب في تاريخ باشوية بغداد وأحوالها الجغرافية والإحصائية، وابتدأ بجمع مجموعته من المخطوطات الشرقية التي لم يدخر من أجل جمعها مجهوداً أو نفقات، وقد نشرت فهارس هذه المجموعة كما كانت عليه في حينه في بضعة أعداد من مجلة (مناجم الشرق) التي كانت تصدر في فينا، وفيها أصدق برهان على مدى النجاح الذي أحرزه في مباحثه.

يهتم ريج بالمقتنيات النادرة واللقى الأثرية، إذ جمع مجموعة غنية بالأنواع والمسكوكات والمجوهرات والأحجار المنقوشة التي عثر عليها في بابل ونيوى، وطيسفون وبغداد، وقام برحلة إلى بابل لدراسة آثار تلك المدينة القديمة، فجمع نتاج ملاحظاته في كتابه (مذكرات في خرائب بابل) الذي طبع لأول مرة في فينا، في مجلة مناجم الشرق، ثم طبعت لاحقاً في إنجلترا، وقد وصفت مجلة (ادن يه ره رفيو) هذه الكتاب بقولها: «إنه رواية متواضعة وصريحة في مشاهداته خلال زيارته القصيرة، ويكفيها اعتباراً ما تمتاز به من خلوها من التحقيقات التي لا طائل تحتها، أو التخمينات الارتجالية، إذ كانت خير برهان على براعة المؤلف في العلوم الشرقية والكلاسيكية، وابتعاده عن الادعاء الفارغ والمباهاة الفظة، وذلك نتيجة طبيعية لعلمه المكين».

يُصدر الميجور (ره نل) في عام 1816 صحيفته (أركيتولوجيا) فينشر فيها ملاحظاته عن تخطيط بابل القديمة مستندة على مشاهدات واكتشافات ريج، وقد أظهر الشك في بعض آرائه، وعلى هذا قام ريج برحلة أخرى إلى بابل لدرس موقعها، فنشر في لندن عام 1818 كتابه (مذكرات ثانية في بابل) تحتوي على تحقيقات في المقارنة بين الأوصاف القديمة لبابل والآثار، التي لا تزال تشاهد في مواقعها مبنية على ملاحظات الميجور (ره نل)، وقد أيد في مذكراته الثانية هذه، استنتاجاته الأولى، وأضاف فهرساً قيماً في عاديات بابل مزيناً بالصور المحفورة، فقوبلت هذه المذكرات الثانية باهتمام عظيم في جميع أنحاء أوروبا لأنها أَلقت ضوءاً جديداً على هذا الموضوع الذي يهم كل قراء التاريخ المقدس أو القديم.

يضطر ريج في أواخر عام 1813، لأسباب صحية، أن يترك مقيمة بغداد في رعاية معاونه المستر هاين، ويُسافر إلى إستانبول برفقة زوجته، فيقضي فيها مدة بضيافة صديقه المستر روبرت والان، سفير بريطانيا لدى الباب العالي، وقد حملته اعتبارات شتى في أوائل عام 1814 على إطالة سفرته ماراً ببلغاريا وبلاد الإفلاق والمجر حتى فينا، ومن ثم وصل إلى باريس، وكانت جيوش الحلفاء قد احتلتها. وكانت تلك الأيام مليئة بالأحداث المثيرة، وباستثناء سفرة قصيرة قام بها إلى بازل، حيث التقى مع صديقه وحميه السير جيمس ماكنتوش، فإنه استقر في باريس، حيث أتاحت له الفرص لمقابلة الشخصيات المهمة، التي كانت محتشدة فيها في الأيام الخطيرة، إلى أن رجع بونابرت ففرق شملهم، وجعلهم يعودون كل إلى جيشه أو بلاده. يمر ريج في طريق عودته إلى بغداد بسويسرا وميلان، ومنها إلى البندقية، حيث ودع مكرهاً البلاد الإيطالية الوداع الأخير، فعبّر إلى (ترية سته)، ومنها سافر بطريق (كورفو) والأرخبيل إلى إستانبول، وقد مر بطريقه

بعدد من الجزر فنزل إليها لارتياح موقع (طروادة) القديم، ومن إستانبول عاد إلى بغداد، بطريق آسيا الصغرى، ماراً بقدر المستطاع بطريق يختلف عن طريق سفره إلى أوروبا، وموجهاً اهتمامه بصورة خاصة إلى جغرافية تلك البلاد لاسيما مواقع سلاسل الجبال، ولما قارب وادي الرافدين زار أديرة السريان والكلدان، وجمع المعلومات عن اليزيدية.

يوصل ريج بعد وصوله مقر مقيمته تتبعاته القديمة، وتمكن خلال السنوات الخمس التي قضاها فيها، من إضافة مخطوطات جديدة إلى مجموعته فأصبحت أوسع وأثمن مجموعة يمتلكها أي شخص في الشرق، وقد ساعدته إقامته ببغداد على هذه المزية الفريدة، وتوسعت كذلك مجموعته من المسكوكات اليونانية والبرثية والساسانية والإسلامية، كما توسعت مجموعته من المجوهرات والأحجار المحفورة لاسيما الأسطوانات البابلية.

يقوم ريج خلال هذه المدة برحلته الثانية إلى بابل. وفي سنة 1820 تسوء حالته الصحية فيقوم برحلة إلى كردستان لغرض تغيير الهواء، وهي الرحلة التي تضمنت يومياتها كتابه (رحلة ريج إلى بغداد وكردستان وإيران). وخلال عودته قام بزيارات متعددة للكنائس المسيحية في مواطن الكلدان، لاسيما تلك التي لم تفتح له مشاهدتها في سفراته السابقة، فتمكن من أن يجمع ويضيف إلى مكتبته عدداً من النصوص السريانية والكلدانية القديمة القيّمة للكتاب المقدس، ومخطوطات نادرة أخرى. وكان قد وطد العزم على السفر إلى بومباي، حيث عينه حاكمها اللورد منتبورات إلفنستون⁽¹⁾ Mountstuart

(1) منتبورات إلفنستون (1779-1859) إسكتلندي، ولد في دومبارتون في 6 أكتوبر 1779، وتلقى تعليمه في المدرسة الملكية بأدنبرة، ثم التحق بالخدمة المدنية بشركة الهند الشرقية البريطانية، حيث كان أحد أعمامه مديراً لها، ووصل كلكتا في عام 1796، حيث شغل العديد من الوظائف، وفي عام 1801 انتقل للعمل الدبلوماسي، حيث عين مساعداً للمقيم البريطاني في بيشاو Peshwa. وفي عام 1804 أصبح المقيم البريطاني في ناجبور Nagpur. وفي عام 1819 تم تعيينه في منصب حاكم بومباي حتى

Elphinstone في منصب خطير، لكن حدث أن هُوجمت دار المقيمة هجوماً عنيفاً بأمر من داود باشا والي بغداد (1816-1831)، أو بتحريضه، وقد نجح المستر ريج في صد هذا الهجوم بقوة السلاح، وتوجه إلى البصرة فبقي فيها حتى دفعت التعويضات المطلوبة⁽¹⁾. وفي أثناء انتظاره تعليمات حكومته استغل الوقت فقام بسياحة إلى شيراز، ومنها توجه إلى زيارة خرائب برسبوليس وضريح قورش، وبقايا العاديات الأخرى الموجودة في تلك الضواحي.

يُصيب مرض الكوليرا مدينة شيراز، في أثناء إقامة ريج فيها، وخلال بضعة أيام مات ستة آلاف شخص من سكان البلدة البالغ عددهم نحو الأربعين ألفاً، وعلى إثر ذلك هجر البلدة أميرها مع أفراد عائلته وكبار أعيانها ووجهائها ومن استطاع ذلك من أبناء الطبقة الفقيرة. أما ريج فقد أبى أن يُيأرح المدينة، وبذل جهده لتسكين روع الأهلين بزيارتهم، وإسعاف المرضى والمحتضرين، وقد أسعدت قلبه مشاعر الاعتراف بالجميل والشكر التي أظهرها له الناس الذين انبرى لإسعافهم بالأدوية الضرورية. لكن هذه الآفة كانت قد أنشبت أظفارها فيه أيضاً، وظهرت عليه أعراض المرض في 4 أكتوبر، وعلى الرغم من العناية والإسعافات التي أجريت له قضى نحبه في صبيحة اليوم التالي، ودفن في (جهان نامه)، في إحدى الحدائق الملكية التي كان يُقيم بها، ونُصب له تمثال تخليداً لذكراه.

وهكذا رحل هذا الرجل الفذ، ذو النبوغ والمزايا والتحصيل، والأخلاق والمزايا، والمؤهلات الواسعة الفريدة، فقد كانت السرعة التي تعلّم بها اللغات والفنون ترجع إلى غريزة كامنة فيه أكثر من المجهود الذي بذله،

عام 1827، ثم عاد إلى لندن بعد عامين من الترحال في عام 1829، وانتخب زميلاً للجمعية الملكية في أدنبرة في العام التالي. وتوفي في هوكوود Hookwood في 20 نوفمبر 1859. الموسوعة الحرة ويكيبيديا، Mountstuart Elphinstone، (تمت الزيارة بتاريخ 21 يونيو 2017).

(1) علي عفيفي علي غازي: الصراع الأجنبي، ص 27-30.

ففي الحقبة الأخيرة من حياته باشر مسح البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية بنفس السهولة التي حصل بها على معلوماته الرياضية العالية التي كانت تقتدر إليها مهمته. وكان العرب والأتراك معاً يقدرون فيه علمه الواسع في آدابهم، أما بين جماعة أصحابه فكان دائماً قطب الدائرة المحب، إذ كان على استعداد للانخراط في كل ملامههم بدون كلفة، تعجبه الروح المرحة والفكاهة، وكان ملتهب العاطفة نشطها، بين الأصحاب الخليل الوفي الصميم، كان شديد الحب لزوجته، وكان الشعور الديني فيه عميقاً، وكانت شخصيته القوية تمكنه من قيادة مرؤوسيه والسيطرة عليهم، وقلما بلغت الأخلاق البريطانية الشهرة التي بلغت في بلاد الرافدين في الأيام التي تقلد فيها منصبه كمقيم بريطاني في بغداد. ولقد كانت مذكراته عن بابل الأثر الوحيد الذي نشره في حياته، وبعض المقالات في مجلة (مناجم الشرق)، وقد ترك مخطوطات عديدة، لاسيما يومياته المسهبة عن طريق سفره من بغداد إلى إستانبول، التي رافقته بها زوجته السيدة ريج، على ظهر جواد. كذلك ترك يومياته عن سفره من إستانبول إلى فينا، ومن باريس عائداً إلى بغداد، ويومياته في كردستان، وأوراقاً أخرى عديدة في موضوعات متفرقة. أما مجموعته القيمة من المخطوطات الشرقية والمسكوكات والعاديات، فقد اشتراها البرلمان البريطاني لمنفعة المتحف البريطاني حيث هي الآن.

تُلقي يوميات ريج ضوءاً جديداً ساطعاً على جغرافية كردستان وعادات أهلها، وإن النقاط الجغرافية التي تم التحقيق فيها لما تساعد على تعيين المواقع ليس في مختلف نواحي كردستان فحسب، وإنما في الأصقاع المجاورة. ومما لا شك فيه أن ريج كان يرغب في نشر مباحثه وملاحظاته عن سفرته هذه، فقد استعان بكافة وسائل المسح الفني، وعين في يومياته بكل دقة النقاط التي كانت توجه سيره، ولو كان الأجل يمتد به لنشر هذه

الأوراق على الجمهور بنفسه، فلربما كان يُضفي عليها الشيء الكثير من ألوان مخيلته، ويُضيف إليها الكثير من المعلومات التي كانت تزدهم في عقله ورهن إشارته، والتي لم يذكرها في يومياته في حينها. وفي الوقت نفسه فإنه بفضل جمعه بين دقة التخطيط وبراعة القلم، بالإضافة إلى المسح الفني، فقد أنجز في بعض أقسام كردستان التي كانت مجهولة في الخرائط الأوروبية حتى ذلك الحين.

يذكر جيمس بيلى فريزر، في رسالة بعث بها إلى ويليم أرسكن، في بومباي، مؤرخة شيراز 6 أكتوبر 1821، أي بعد وفاة ريج بيوم واحد، العبارات التالية: «عثرت بين الكتب التي وجدتها لديه على دفاتر تعليقات ومذكرات لا أشك في أنها ذات قيمة كبيرة، فهي تحتوي على ملاحظات جغرافية وفلكية، ونحن بأمس الحاجة إليها في خرائطنا الإيرانية، وجميع هذه التعليقات والملاحظات عن كردستان، إما أن تكون موجودة بين هذه الأوراق، أو أنها بين الأوراق التي خلفها في بوشهر، وإنها ستكون خسارة لا تعوض للجمهور، فيما لو فقدت، ولقد حرصنا على ألا تفلت منا، أو تضيع علينا أية قصاصة من الورق، فقد تحتوي هذه الوريقات على مذكرات لها قيمتها، وقد سمعت المستر ريج يقول مرة، إن كافة الخرائط الموجودة حالياً عن هذا الجزء من آسيا مشحونة بالأغلاط، وعبر عن رغبته في أن يتم مشروع خرائطه الخاصة، التي كان يُريد أن يضعها بنفسه، ونجد كذلك نسخة جد قيمة من الكتابات المسمارية الموجودة في برسبوليس، كلها مكتوبة بخط يده، وقد كان عازماً على إرسال نسخة منها إلى الأستاذ غروتيفند في ألمانيا»⁽¹⁾

يذكر ريج أن سبب رحلته هو تعريف الأوروبيين بمنطقة كردستان، فيقول:

(1) كلوديوس جيمس ريج: رحلة ريج المقيم البريطاني في العراق عام 1820 إلى بغداد وكردستان وإيران، اللواء بهاء الدين توري (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2008)، ص 5-19.

«ولما كانت كردستان بلداً غير معروفة في أوروبا إقليلاً، وكان لي هناك الكثيرون من المعارف من مواطنيها، الذين وصلتني منهم الكثير من الدعوات الملحة لزيارتهم، فقد سرني أن تتاح لي فرصة أخرى لإرواء غليلي الذي لا تنطفئ ناره، لمشاهدتي بلداً جديدة».⁽¹⁾

يهتم ريج بالإشارة إلى وجود عدد من المطابع في مدينتي إستانبول وتبريز، فكتب يقول: «إن المطابع في إستانبول، لم تقم حتى الآن بواجب تنقيف الشعب، إلا أنها طبعت بعض الكتب الجيدة، وقلما يطلبها أحد، بل لا يطالعها حتى الذي يحصل عليها، والآثار الوحيدة التي طبعت ونشرت وتهافت الناس عليها هي القواميس، وعباس ميرزا، معني الآن بتأسيس مطبعة في تبريز، ترى هل ستفيد هذه المطبعة الإيرانيين أكثر مما أفادت الأتراك مطابع اسطنبول، والأمة لا تتقدم بالقوة والإكراه أو بمجهود فردي، مهما كان تقديماً أو قوياً».⁽²⁾

الخط العربي

يلحظ ريج أن قصر والي سنة بمنطقة كردستان العراق مزين بنقوش وخطوط عربية، فكتب يقول: «وكان الصيوان، أي القصر، شامخاً، وقد زين بالنقوش المذهبة على الطراز الإيراني. والصيوان كغيره من الأبنية المشيدة على طرازه تقليداً لنمط جوسق (جارباغ) في أصفهان، وغيره من الأماكن المماثلة له التي ترجع إلى عهد الدولة الصفوية»⁽³⁾. هناك صيوان Pavilion جديد مشيد في مؤخرة الشرفة عند المدخل سمي بالخسروية على اسم أكبر أولاد الخان من الأحياء، واسمه خسرو خان، لكن اسمه أبديل مؤخراً بمحمد

(1) كلوديوس جيمس ريج: مرجع سابق، ص 23، 24.

(2) المرجع السابق، ص 293.

(3) نفسه، ص 196، 197.

علي تيمناً، وكان بالقرب من الغرفة المعدة لي بهو الاستقبال القديم الذي شيده خسرو خان، والد أمان الله خان، بعد ولادة ابنه الوالي الحالي، وذلك قبل سبعة وأربعين عاماً، فالنقوش والزخارف المذهبة التي كانت يوماً ما جميلة، أصبحت لا يمكن ترميمها الآن، لقد أكسبت جدران البهو بالخشب على ارتفاع أربعة أقدام تقريباً، ورسمت عليه الأزهار، ورسمت على الأقسام العليا من الجدران رسوم مختلفة تمثل معركة جالديران، والمعركة التي دارت بين تيمورلنك وبايزيد، ورسوم بعض ملوك إيران الصفويين، ورسم الشاه الحالي بلحيته الخارقة⁽¹⁾، ورسم الإسكندر الأكبر، وإلى جانبه ساعة، وهو يرتدي البزة الإيرانية، وبوجه امرأة خليعة، هذا، ومن الغريب جداً أن نرى الإيرانيين يؤثرون عن الإسكندر كونه شاباً، أمرد وسيم الطلعة. وكانت واجهة البهو مكشوفة تدعمها الأعمدة وفي منتهاها مقصورة يُطلق الإيرانيون عليها اسم (شاه نشين)، وهي على جانب عظيم من الزخرف، وفي وسطها حوض ماء صغير وتفصلها عن البهو نوافذ زجاجية تسدل عند الاقتضاء، ويُسمى هذا النوع من البهو بـ(التالار إيوان)، وهذه كلها تقليداً لأبنية الصفويين في أصفهان، إن سعة الإيوان عدا المقصورة خمسون قدماً طولاً وخمسة وعشرون قدماً عرضاً. وإذا ما انعطفنا نحو زاوية ذلك

(1) فتح علي شاه، الشاه الثاني من العائلة القاجارية، خلف عمه آغا محمد خان على إثر وفاته، وقد اعتلى العرش بعد اضطرابات داخلية عمت الجيش، وكان إذ ذلك حاكم إيالة فارس، وهو ولي العهد، فتقدم من شيراز إلى العاصمة، وسيطر على الموقف بمساندة رئيس الوزراء الحاج إبراهيم له، وكان هذا عام 1212هـ/ 1789م، ولم يتوج إلا بعد مضي سنة على ذلك، وبقي في دست الحكم 37 عاماً وتوفي عام 1250هـ/ 1826م، ومن الوقائع التي حدثت في عهده تجريد القوات لإخضاع خراسان، وحربه مع الأفغان، ثم مع الروس، وقد أسفر ذلك عن ضياعه بلاد الكرج، وقد امتاز بكفاءة في درء أطماع نابليون في إيران، الأمر الذي حمل الإنجليز على التحالف معه فور اعتلائه العرش، وكان ذلك من الأسباب التي حولت وجهة الأفغان من تحرشهم بالهند وازدهار التجارة بين الهند وإيران، وكانت زيارة السير جون مالكولم لإيران كوزير مفوض فوق العادة لدى البلاط الإيراني في عهده. سلطان بن محمد القاسمي: جون مالكولم والقاعدة التجارية البريطانية في الخليج 1800، (الشارقة: الخليج للصحافة والطباعة والنشر، 1994).

الإيوان المزدان بالأنجم والأوراد نجد بهو الاستقبال الجديد الذي بناه أمان الله خان قبل نحو أربع سنوات. وهذه الغرفة أكبر من الإيوان، تسد واجهتها نوافذ ذات رسوم بديعة، وهي غرفة فخمة جداً، والإزارة منها من المرمر الشفاف قليلاً أو من الرخام المعرق، وقد لونت الإزارة تلويحاً جميلاً، وموهت بالذهب بدوق سليم وألوان متناسقة، وكانت درجات السلم من الرخام المعرق ذاته، وقد جيء به من تل على طريق همدان، وقد استخرج من الأرض بعناء شديد، ولكن مما ألحق الضرر البالغ بجمال الردهة ما رسم على الأقسام العليا من جدارها من الرسوم البخسة، وهي أشبه ما تكون برسوم اللافتات، وهي تمثل الملك سليمان، ومملكة سبأ، ومعركة دلهي ونادر شاه يُعيد التاج إلى المغول، ورسوم أخرى تمثل حوادث مماثلة، والأنكى من كل ذلك وجود صور منتصبة زعموا أنها تمثل إمبراطور روسيا، وأمير الغال، وحاكم الهند العام، وملك الأسبان، وإمبراطور ألمانيا، وبونابرت، وهو يحمل بيده بندقية وحرية، لقد كانت كلها رسوم سمجة لا تمت إلى هؤلاء بشبه لا في السيماء ولا في القيافة، إلا رسم إمبراطور روسيا الذي إذا نظرت إليه عرفته لأول وهلة، وقد رسموا أيضاً جلالة الشاه الإيراني بلحيته المرعبة، وهو مثقل بالمجوهرات، وعلى جانبي البهو شرفتان صغيرتان مرتفعتان زينتاً بزينا بديعاً، تعرف عندهم بالإخانة، وأرى أن كلمة (بلكون) الإنكليزية محرفة عنها، وكلها مجموعة من ماء الألوان الزاهية المذهبة، وفي الواقع كانت الإزارة برخامها المعرق فخمة وجميلة معاً، هذا ولو استعويض عن هذه الرسوم السمجة المرسومة على الجدران برسوم من ريشة رويين بألوانها الفنية، التي تتلاءم مع باقي أقسام القاعة، أو إذا تعذر ذلك، وهو الواقع، واستعويض عنها بقطع من سجاد غوبلين، لأصبحت غرفة تستحق عناء السفر لمشاهدتها، في أي ناحية من أوروبا. وهنالك على بعد

قليل من هذه القاعة توجد غرفة صغيرة مكسوة جدرانها بالمرايا ومزوقة تزويقاً غريباً بالأباريق والأكواب والقناني وكؤوس الزجاج وغير ذلك»⁽¹⁾.

الخط الكوفي

يعثر ريج في قرية كفري بمنطقة كردستان العراق على مسكوكة أثرية، تحمل كتابات كوفية، فيكتب يقول: «كنت قد أوعزت بجلب أية قطعة من المسكوكات أو العاديات الأخرى التي يُعثر عليها عند القرويين، وقد جاءني (روبين) في هذا اليوم بثلاث قطع من المسكوكات، وبقطعة حجر منحوت حصل عليها من أصدقائه اليهود، إلا أنها كانت بعيدة كل البعد عن أن تُلقَى ضوءاً على تاريخ الخرائب المجاورة، وكأنها صنعت خصيصاً لتحير للإنسان، وتزيد غموضه في الأمر، وكانت إحدى المسكوكات أرساسية Ar-sacian، والثانية ساسانية، والثالثة كوفية»⁽²⁾. ويدل ذلك على معرفة ريج العميقة بأنواع الخطوط العربية، ومقدرة فائقة على التمييز بينها، وخاصة على المسكوكات والعاديات، التي تحمل كتابات دقيقة وصغيرة نسبياً. ما يؤكد على مواهبه الشخصية الفذة.

(1) كلوديويس جيمس ريج: مرجع سابق، ص 200-203.

(2) المرجع السابق، ص 40، 41.

جسس بكنجهام

يولد الرحالة الإنجليزي جسس سلك بكنجهام J. S. Buckingham (1786-1855) عام 1786 في قرية بالقرب من مدينة فالموث بإنجلترا لأب مزارع، ويُعمر بالبحر، منذ صباه، وينتقل وهو شاب إلى الهند، حيث يعمل في إحدى دوائر شركة الهند الشرقية الإنجليزية، ثم يُصدر (صحيفة كلكتا Culcutta Journal)، التي نجحت نجاحاً كبيراً لما كان يكتبه فيها من نقد لأعمال شركة الهند الشرقية الإنجليزية⁽¹⁾، وما يعالجه من شؤون الهند ببعض من العدل والإنصاف. ولكن انتقاداته أثارت غضب السلطات البريطانية في الهند، وضاق به ذرعاً (جون آدم)، نائب ملك بريطانيا في الهند عام 1823؛ فعطل صحيفته، وأمر بإخراجه من الهند. ليعود بكنجهام إلى بريطانيا؛ ليقيم دعوى قضائية ضد شركة الهند الشرقية أمام البرلمان البريطاني مطالباً إياها بالتعويض، ويُصدر البرلمان حكماً لصالحه إذ يلزم الشركة بأن تدفع له تعويضاً مالياً بمبلغ مائة باون في السنة.

يغتتم بكنجهام، أثناء عمله في شركة الهند الشرقية، ما يتجمع لديه من إجازات سنوية ليُنْفِقها في رحلة من رحلاته المحفوفة بالمخاطر والأحوال. إذ كان كثير التطواف والترحال، وكانت البلاد العربية قبله أنظاره في رحلاته وأسفاره. وبدأ أولى رحلاته العربية بمصر عام 1812 فطاف بها من بورسعيد حتى جنوبي أسوان مستوضحاً عن أماكنها الأثرية خاصة، ومدوناً أحوال السكان أثناء اتصاله بهم في تطوافه، وفي حله وترحاله عامة، وطبع تلك الرحلة في جزئين كبيرين. وفي عام 1814 يقوم برحلة أخرى إلى فلسطين، وشرقي الأردن، وأخرج مشاهداته وملاحظاته في كتابين أيضاً.

(1) سهيل قاشا: الموصول في مذكرات الرحالة الأجانب خلال الحكم العثماني، (بغداد: دار الوراق للنشر، 2009)، ص 27.

وفي سنة 1816 بدأ رحلته إلى العراق عن طريق سورية بدأها من مدينة حلب في 27 مايو 1816، وبعد أن عبر نهر الفرات اتجه نحو أورفة داخل الحدود التركية حالياً، ثم سار منها إلى ماردين فديار بكر، ومنها كر راجعاً إلى ماردين فمدينة نصيبين، ومن هناك عبر الحدود العراقية متخذاً طريقه عبر سهل سنجان إلى الموصل، ثم دخل بغداد عن طريق الموصل، أربيل، كركوك. وبعد زيارات خاطفة لعركوف وآثار بابل استقر بضعة أيام في بغداد ليُغادرها إلى الهند عن طريق إيران. وقد أصدر مجلدين عن رحلته إلى العراق، بعنوان (رحلات في بلاد ما بين النهرين Travels in Mesopotamia) (لندن: 1827)، الجزء الأول عن ديار بكر وماردين، والثاني عن الموصل وكركوك وبغداد وبابل. كما صدرت رحلته عن إيران في المدين أيضاً، بعنوان (رحلات في أشور وميديا وإيران Travels in As-syria. Media and Persia) (لندن: 1830)، يصف فيها سفره من بغداد إلى إيران بطريق خانقين وقصر شيرين إلى أن وصل إلى أنقاض مدينة برسبوليس الإيرانية القديمة، ومن هناك غادر إيران إلى الهند ثم عاد من الهند بحراً ليستقر في مدينة البصرة وبوصفها اختتم رحلته الثانية هذه⁽¹⁾. وضم كتابه عن إيران فصولاً خاصة عن البصرة والخليج العربي. وأصدر بعد ذلك كتاباً جديداً باسم (رحلات بين العشائر العربية)، تحدث فيه عن تطوافه بين العشائر العربية على امتداد فلسطين والأردن وسوريا والعراق. وفي ديسمبر 1816 يزور مسقط في طريق عودته من الهند⁽²⁾.

(1) ستيفن همسلي لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، جعفر الخياط (ترجمة)، (بغداد: مكتبة اليقظة العربية، 1985)، ص 403؛ جيمس بيلي فريزر: رحلة فريزر إلى بغداد سنة 1834، جعفر الخياط (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2006)، ص 81.

(2) هلال الحجري: (مدخل إلى أدب الرحلات في عمان، دراسة وصفية للرحالة البريطانيين 1626-1970)، مجلة نزوى، العدد 35، (يوليو 2003).

يستقر المقام بيكنجهام في إنجلترا ويصدر جريدة (صوت الشرق Oriental Herald) في عام 1824، ثم صحيفة (Athenacum) عام 1828 لكنه لم يلق نجاحاً يُذكر. وانغمس انغماساً واسعاً في حملة الإصلاح الاجتماعي في بريطانيا فاشترك في عدة جمعيات ونواد لهذا الغرض، وكان من أقوى الأصوات المطالبة بالإصلاح في البرلمان الإنجليزي عندما اختير عضواً فيه عن دائرة شفيلد (1832-1837). وعكف في سنوات حياته الأخيرة على كتابة سيرته الشخصية، وكان مقرراً أن تقع هذه السيرة في أربعة مجلدات لكنه لم يكمل منها سوى مجلدين قبل وفاته سنة 1855.

الخط المسماري

يذكر بكنجهام الخط والكتابات في رحلته أولاً بالإشارة إلى أنه رأى كتابات بالخط المسماري في (تل المجبلي) الذي يصفه بأنه (ركام خرائب تكونت من تقوض الأبنية) يرجح أنها ترجع إلى الفترة البابلية في العراق، حيث عثر (فيه على قطع من اللبن الصلب عليها كتابات بالخط المسماري أو البابلي).⁽¹⁾

الخط العربي

يشاهد بكنجهام على برجى سور بغداد الباقيين كتابة مستطيلة طويلة في أعالي هذين البرجين نقشت على نسق الخط العربي القديم، و(تحتل شريطاً عريضاً في الجزء الشمالي من هذين البرجين قد خطت بأحسن خط عربي قديم، ويظهر من صفة تلك الكتابة أنها ذات الكتابة التي استسخها (نيبور) من أحد الأبراج، ويظهر من هذه الكتابة أن الخليفة

(1) جمس بكنفهام: رحلتي إلى العراق سنة 1816، سليم طه التكريتي (ترجمة)، الجزء الأول (بغداد: مطبعة أسعد، 1968)، ص 256.

الناصر هو الذي شيدها في سنة 618 للهجرة أو سنة 1221 للميلاد⁽¹⁾.
 يذهب بكنجهام إلى أنه شاهد على عتبات حوانيت بغداد (خاصية لم ير
 مثلها في أي مكان آخر)، فيذكر أنه لاحظ في سوق بغداد وجود شريط
 من كتابات عربية قديمة تعلقو عتبة كل حانوت، وقد حضرت بحروف كبيرة،
 واعتنى بها مثل أي من الكتابات الموجودة في المسجد. ولقد نقشت هذه
 الكتابات بنسق وانتظام إلى درجة تحمل المرء على الاعتقاد بأنها كانت
 معاصرة للسوق نفسه، وهو قديم جداً، ولكنه يتساءل (هل أن هذه الكتابات
 تحمل أسماء الذين اشتغلوا بتلك الحوانيت عند افتتاحها، وهل أنها تضم
 بعض العبارات المقدسة أو تشير إلى تاريخ تأسيسها؟) إلا أنه لم يستطع
 الإجابة معللاً ذلك بأن «نظراتنا الخاطفة إليها لم تدعنا نتأكد من ذلك»⁽²⁾.
 يلاحظ بكنجهام كتابات الخط العربي على جوامع بغداد، فيذكر أن المثدنة
 جامع سوق الغزل تختلف عن مآذن سورية ومصر، «والسطح الخارجي لهذه
 المثدنة يحمل دلائل التصدع، لكن الجزء الباقي منه يشير إلى أن بعض
 أجزائه الأخرى، كانت مزينة بالنقوش العربية المدهشة، وأن إحدى الكتابات
 التي نقلها نيبور بمساعدة أحد الملالي العرب تُبين أن المسجد قد شُيد من
 قبل الخليفة المستنصر سنة 633 للهجرة الموافق لسنة 1235 الميلادية». أما
 جامع مرجان، الذي لا يبعد كثيراً عن جامع سوق الغزل، نراه يصفه
 بأنه «مسجد...، فيه آثار مساوية في القدم لآثار جامع الغزل وواجهته غنية
 بالنقوش العربية...، وباب مدخله جميل جداً مؤلف من قوس عال ينتهي كل

(1) جمس بكنفهام: رحلتي إلى العراق، ج 1، ص 192؛ وراجع الكتابات التي استسخها نيبور في علي عفيفي
 علي غازي: (الخط العربي في كتابات الرحالة كارستن نيبور)، مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني،
 (2016)، ص 48-55؛ بكنكهام: (رحلة بكنكهام، وصف بغداد)، محمد علي حلاوي (ترجمة)، في
 كتاب بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق للنشر، 2007)، ص 104.

(2) جمس بكنفهام: رحلتي إلى العراق، ج 1، ص 195.

جانب منه بسلسلة من أشرطة فخمة منحوتة نحتاً رائعاً...، وفي أعقاب آخر هذه الأشرطة قائمة كبيرة ذات قطر كاف يُمكن اعتبارها عموداً...، وهذه القائمة مخططة بصفة لولبية على امتداد ارتفاعها، وتبدو على الأجزاء البارزة من هذه التخطيطات كتابات ونقوش دقيقة بُدِّل جهد كبير فيها كُتبت بنسق العصر الذي وجدت فيه. وهناك فيض من الكتابات التي يستطيع أي أمرئ نقلها إذا تهيأ له الوقت اللازم لهذا العمل، الذي يتطلب عدة أسابيع على الأقل⁽¹⁾. أما جامع الرصافة الذي شيده الخليفة أبو جعفر المنصور سنة 143هـ / 760م، ويعتبر أقدم جامع في جانب الرصافة من بغداد...، وكان يُعرف باسم جامع القصر، ثم أطلق عليه جامع الخليفة فجامع الخلفاء، أما مؤنذته الشهيرة التي لا تزال قائمة فقد شيدت سنة 678هـ / 1279م⁽²⁾.

يواصل بكنجهام حديثه في موضع آخر عن كتابات عربية بالخط العربي بحروف مستقيمة، وحروف فارسية متعرجة، بجامع الخاصكي ببغداد، فيقول: «إن البناء الظاهر داخل المسجد يبدو أنه من تاريخ متأخر كثيراً عن أصل البناء، فهو لم يكن بسيطاً فحسب بل وضعيفاً، ولو أنه يضم بعض الكتابات العربية بحروف حسنة بارزة إحداها بالخط الفارسي المتقطع المائل»⁽³⁾. أما جامع الميدان ببغداد الذي أضيفت إليه في الآونة الأخيرة زخارف كثيرة، والذي يحتفظ بقبة ومنارة جميلتين زخرفتا بالقاشي الملون والكتابات⁽⁴⁾.

(1) جمس بكنفهام: رحلتي إلى العراق، ج 1، ص 194. ويشير المترجم إلى أن كتابات هذا الجامع قد اقتلعت في السنوات الأخيرة حينما هدم في سبيل أن يستقيم شارع الرشيد، فلم يبق في البناء الأصلي سوى المدخل الذي يصفه الكاتب، أما الكتابات المقتلعة فقد نقلت إلى دار الآثار ببغداد. بكنكهام: وصف بغداد، ص 107.

(2) جمس بكنفهام: رحلتي إلى العراق، ج 1، ص 214.

(3) جمس بكنفهام: رحلتي إلى العراق، ج 1، ص 196؛ بكنكهام: وصف بغداد، ص 109.

(4) جمس بكنفهام: رحلتي إلى العراق سنة 1816، سليم طه التكريتي (ترجمة)، الجزء الثاني، (بغداد:

يلتفت بكنجهام كذلك إلى الخط العربي المكتوب على قباب بغداد، فيُشير إلى أن «قباب بغداد ذات مسحة فارسية، والفرق بينها وبين قباب تركيا وسورية من حيث الهيئة والطراز كان أولى الصفات المميزة التي استرعت انتباهي عند دخولي المدينة. وهنالك قبتان أو ثلاث مسطحة وغير مزخرفة لأهمية لها، ولكن القباب الرئيسة جميعها عالية وضيقة وارتفاعها يزيد على طول قطرها بنحو النصف، وهي غنية بالزخرفة بالكاشي المزجج والرسوم، أما الألوان السائدة فهي الأبيض والأخضر، وبعض الكتابات التي تطوق قاعدة القبة هي الأخرى مزخرفة على هذا النمط».⁽¹⁾

ينتبه بكنجهام إلى الخط العربي المكتوب على ما يشيع أنه مرقد السيدة زبيدة زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد.⁽²⁾ «هذا القبر الذي يقع وسط مقبرة واسعة من قاعدة مثمثة الزوايا ذات طنّف تقوم في المقدمة... ويكون الدخول من السقيفة الخارجية إلى الضريح ذاته، أو إلى القاعدة المثمثة الزوايا عبر ممشى يغطيه سقف معقود، وترى فوقه كتابات حديثة مؤرخة في سنة 1131 للهجرة. ولقد استنسخ نيبور تلك الكتابات⁽³⁾، وذكر أن في تلك السنة ذاتها دفن حسن باشا، إلى جانب زبيدة الشهيرة، زوجته المتوفاة عائشة، وهي ابنة رجل يدعى مصطفى باشا، وأنه قام في هذه المناسبة

مطبعة أسعد، 1968)، ص 81؛ بكنجهام؛ وصف بغداد، ص 136.

(1) بكنجهام؛ وصف بغداد، ص 110.

(2) يصحح مترجم رحلة بكنجهام ما وقع فيه رحالتنا من الخطأ، بل يذكر أنه من الأخطاء الشائعة حول هذا القبر الذي يقع في الكرخ. فالشائع أن هذا القبر يعود إلى السيدة زبيدة زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد، إلا أن هذا القبر يعود إلى السيدة (زمرد خاتون)، زوج الخليفة المستضيء بالله العباسي وأم الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة سنة 599هـ/ 1202م. وأن السيدة زبيدة دفنت بالقرب من ضريح الإمام موسى الكاظم، وقد أحرقت قبرها مع غيره من قبور قريش في الفتنة التي وقعت سنة 443هـ/ 1051م. جمس بكنجهام؛ رحلتي إلى العراق، ج 1، هامش ص 233.

(3) راجع الكتابات التي استنسخها نيبور في علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي في كتابات الرحالة كارستن نيبور)، مجلة أفكار، العدد 234، (كانون الثاني 2016)، ص 142-148.

بإصلاح البناء كما شيد إلى جانبه بعض المرافق للدراويش أو الجوالين الفقراء والمتمسكين بإيمانهم تمسكاً صحيحاً...، وتقوم قبالة باب المدخل كتابة عربية خطت في شكل نقوش على القاشي، وهذه الكتابة ليست كاملة بسبب اختفاء عدد من قطع القاشي التي دونت عليه⁽¹⁾.

يهدى أحد دراويش بغداد إلى بكنجهام نسخة من القرآن الكريم، والتي سرقتها منه بعض المسافرين معه في القافلة التي كان يسافر برفقتها في البادية، فيذكر أن «هذا القرآن في أصغر حجم يُمكن أن يكون فيه، ومع ذلك كانت قراءته ممكنة لأنه كتب بخط جيد»⁽²⁾.

الخط الكوفي

يُميز بكنجهام الخط الكوفي في عقروقوف، ففي جانبها الغربي من دجلة، يزور أحد المستشفيات الرئيسة للدراويش. والتي يصفها بأنها بناية «جيدة شيدت من الآجر، وهي كأى من صروح بغداد، تمّ تشييدها من ذات المواد التي تُبنى منها البنايات الفخمة في أوروبا في الوقت الحاضر، فالنطاق الكبير في الجبهة ذو شكل قوطي، وهو جد مرتفع. والأشرطة الواسعة على كل جانب منه، تضم كتابات كوفية طويلة جميلة خطت بشكل بارز في صيغة زخرف»⁽³⁾ ويرجع سبب تسمية هذا الخط إلى مدينة الكوفة التاريخية، نقلاً عن كتاب الدكتور فنسنت (Dissertations on the Commerce of Arabia)، والذي يُشير إلى أن الفتح الإسلامي لبلاد فارس، قد عمل على فتح طريق عبر شبه الجزيرة العربية من مكة إلى الكوفة، المدينة التاريخية التي ينسب إليها الخط الكوفي⁽⁴⁾.

(1) جمس بكنفهام: رحلتي إلى العراق، ج 1، ص 228، 229.

(2) جمس بكنفهام: رحلتي إلى العراق، ج 2، ص 182.

(3) جمس بكنفهام: رحلتي إلى العراق، ج 1، ص 218.

(4) بكنكهام: وصف بغداد، ص 143.

يتعرف بكنجهام على الخط الكوفي على مباني المدرسة المستنصرية في بغداد، فيذكر أنه شاهد «جبهة البناية المجمعية الشهيرة المعروفة باسم مدرسة المستنصرية، التي ذكرها المؤرخون العرب بأنها طراز إحدى الكليات ومأوى المتعلمين. أما الآن فإنها في حالة تهدم، ولو أن جزءاً منها ما يزال مستخدماً بمثابة خان أو كروان صاري. ويشاهد على واجهة هذا الجزء المتجه نحو النهر عمود سميك يمتد بطول البناية كلها، وقد يبلغ طوله نحواً من مائتي قدم، ويضم كتابة مستطيلة بالخط الكوفي نُقِشت في الإفريز العلوي فوق قاعدة مزخرفة، وكلها مصنوعة من الآجر، وقد تهدمت بعض أجزاء الجدار، الذي تمتد حوله هذه الكتابة. وأجري تصليحه دون تجديد الحروف المطموسة حيث تقطع تلك البقع من البناء المتهدم سطور هذه الكتابة في عدة أماكن. وما يزال هذا الشارع يعتبر من أوسع الشوارع العامة في بغداد. فهو قريب من الجسر لأنه يقع على جهته اليمنى حينما يتم عبوره من ناحية الغرب، وعلى ضفة النهر مباشرة. وقد استطاع نيبور أثناء إقامته هنا أن يستسخ هذه الكتابة بواسطة أحد الملالى حيث ظهر منها أن ذلك البناء قد تم تشييده من قبل الخليفة المستنصر سنة 630 هجرية، أو سنة 1231 مسيحية»⁽¹⁾.

يشير بكنجهام كذلك إلى كتابات بالخط الكوفي على خاتم يرجع لأحد الخلفاء ضمن مقتنيات المقيم البريطاني في بغداد مستر كلوديوس جيمس ريج فيقول: «ومن بين الآثار الغربية خاتم يزعم أنه لأحد الخلفاء، نقش في بغداد القديمة، ويحتوي على الكلمات (يا الله) بحروف كوفية كبيرة غائرة على مادة تشبه الأختام القديمة. وهنالك خاتم بلوري عليه كتابات عبرية يسهل فك رموزها ولكنها غامضة في كليتها»⁽²⁾.

(1) جيمس بكنجهام: رحلتي إلى العراق، ج 1، ص 229، 230.

(2) بكنجهام: وصف بغداد، ص 131.

نيقولا سيوفي

يُعدّ نيقولا سيوفي N. Siouffi واحداً من أوائل مثقفي وباحثي مدينة دمشق، الذين أتاحت لهم فرصة الاحتكاك بالحضارة الأوروبية في أواسط القرن التاسع عشر، واستفادوا منها في تكوين وعيهم، مزوجين بين معطيات الحضارة الناشئة في أوروبا، وبين جذورهم الحضارية العربية، هذه المزوجة قادتهم إلى تغيير نمط الكتابة والإنشاء والتفكير، وزاوية رؤية الأشياء مؤسسين بشكل أو بآخر للوعي العربي المعاصر، فكان واحداً من المثقفين المتميزين الثائرين على تقاليد الكتابة والإنشاء والغناء والتفكير التقليدي، الذي كان يطبع تلك المرحلة المصيرية من عمر الدولة العثمانية.

يولد نيقولا بن يوسف سيوفي في 12 أبريل 1829 في مدينة دمشق، في أسرة تعود بجذورها إلى العرب الغساسنة الذين كانوا يحكمون سورية الجنوبية قبل الفتوحات العربية الإسلامية، واستوطنت هذه العائلة دمشق في القرن الثاني الهجري إبان الدولة الأموية، واعتنق بعض أفرادها الإسلام، واشتهر بصناعة السيوف الدمشقية حتى نكبة تيمورلنك 656هـ / 1258م.

يدرس سيوفي اللغتين العربية والفرنسية بمدرسة الآباء اليعازريين، ثم اللغتين التركية والإيطالية، واتصل بالأمير عبدالقادر الجزائري، فقربه إليه واستخلصه واصطحبه مترجماً في إحدى سفراته إلى باريس والقسطنطينية، وأهداه نسخة من كتابه (ذكرى العاقل)، وكتب عليها بخط يده: «هذه الرسالة العجالة ألفها كاتب هذه الأحرف بالتماس بعض أحبته بباريس، وأهديت منها هذه النسخة لعوض ولدي العزيز الترجمان نيقولا سيوفي نفعه الله بالعلم، وفتح له أقفال الفهم، لما له علينا من حقوق الخدمة وحسن الصحبة، في 27 صفر 1289هـ / 8 مايو 1872م»، والنسخة في خزانة

يوسف اليان سركيس. وفي أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس كتب كثيرة متبادلة بين الأمير المذكور وسيوفي.

يعمل سيوفي مترجماً في السفارة الفرنسية بدمشق في خمسينات القرن التاسع عشر، ومنح الجنسية الفرنسية، وذلك في 5 ديسمبر 1866. وفي سنة 1873 تم تعيينه في القنصلية الفرنسية بحلب، وبقي فيها إلى سنة 1877، ثم نقل إلى مثل هذه الوظيفة في القنصلية الفرنسية بدمشق. وفي 4 أكتوبر 1877 أصبح قنصلاً في الموصل، وأنعمت عليه الجمهورية الفرنسية في 12 يوليو 1880 بوسام فارس فرقة الشرف Chevalier de la legion d'Honneur. وفي 5 ديسمبر 1889، عين بوظيفة قنصل من الدرجة الثانية، ومع هذا فقد بقي في الموصل يقوم بوظيفة القنصلية إلى 30 مارس 1893، فأحيل إلى التقاعد، وأنعم عليه برتبة قنصل من الدرجة الأولى تكريماً له، وقرر الاستقرار في لبنان، وسكن قرية (بعبداء)، وبقي فيها حتى أدركه أجله في 20 يناير 1901.

يزور الموصل أثناء وجود سيوفي ويلتقي به الرحالة الفرنسي هنري بنديه عام 1885، وقد أشار له في أكثر من موضع من رحلته فقد دعاه سيوفي إلى منزله هو ومن معه لتناول الغداء وأهداه نسخة من كتابه (الصابئة عقائدهم وتقاليدهم)، أخبره عن اكتشافه مسجداً (السلطان لؤلؤ). وقد كتب بنديه عن سيوفي: «نخرج باكراً لكي نلتقط بعض المناظر للموصل رغم فضول الكثيرين الذين يحيطون بنا، إثر عودتنا نمضي لدى السيد سيوفي الذي يستقبلنا بكل لطف كما كنا نتوقع. أصل مسيو سيوفي من دمشق، عمل ترجماناً مدة طويلة للشيخ عبد القادر الجزائري، وكان له صديقاً، إنه متبحر باللغة العربية، يمتلك مجموعة ميداليات من أغرب ما يكون»⁽¹⁾.

(1) سهيل قاشا: مرجع سابق، ص 141.

يولع سيوفي بالتاريخ، وقد استطاع أن يحصل على خبرة معرفية عبر عنها باهتمامات خاصة بالتاريخ العربي، وأثار منطقة الشرق الأدنى، فكتب الكثير في هذا المجال، وله دراسة عن المسكوكات العربية القديمة، وأبحاث في المسكوكات تدل على خبرة تامة واستقصاء في البحث. وكان يستعين بنساخين من أهل الموصل ينسخون له الكتب الثمينة التي يجدها في خزائن الكتب الموصلية، فنسخوا له عدة كتب منها، بعضها متاحف أوروبا، ومن الكتب الفريدة التي حصل عليها سيوفي كتاب (ترجمة عربية لكتاب ديسقوريدس) في تصوير النباتات والحيوانات وخواصها، فقد كلف النساخ السيد مصطفى الصائغ باستنساخها عن نسخة قديمة كانت في المدرسة المحمدية بجامع الزيواني في الموصل، فاعتنى هذا باستنساخها ونقل صورها بغاية الدقة. ثم إن سيوفي أخذ الأصل والنسخة الجديدة إلى دار يونس بك بن عبد الرحمن باشا الجليلي متولي الجامع المذكور، فأعجب يونس بك بخط النسخة الجديدة، وجمال صورها، فعرض على سيوفي أن يحتفظ للوقف بها، وأن يأخذ سيوفي النسخة القديمة، وهي على ما يقال مكتوبة على رق فوافق على هذا، وجمع الكثير من المخطوطات، واستطاع أن ينشر دراسة في واحدة من أهم المجلات الاستشرافية المعروفة في العالم وهي المجلة الآسيوية، إضافة إلى وضعه عدداً من الكتب المرجعية المتعلقة بشمال العراق؛ كونه عمل قتيلاً لسنوات عدة.

يترك سيوفي مجموعة من الكتابات أهمها: (مجموع الكتابات المحررة في بنية مدينة الموصل - Notes historiques et explicatives sur les inscriptions de la ville de Mossoul)، ويتألف من مجلدين، جمع في الأول الكتابات العربية، وفي الثاني علق على هذه الكتابة. واعتمد في تعليقاته على ما سمعه من المعمرين من أهل الموصل، وعلى كتب ياسين بن خير الدين الخطيب

العمرى، وخاصة كتابه (الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون)، واعتمد كذلك على كتاب (منهل الأولياء ومشرب الأصفياء في ذكر سادات الموصل الحدياء)، لمحمد أمين بن خير الله الخطيب العمرى، وكتاب (الانتصار للأولياء الأخيار)، ليوسف بن عبد الجليل الحلبي، وكلها مخطوطة، وانتهى من التعليقات سنة 1881 كما يتضح من التاريخ الذي على المخطوط. له كتاب عن ديانة الصابئة واعتقاداتهم وعاداتهم Etudes sur la religion des soubbas M. N. Siouffi ، طبع في المطبعة الوطنية بباريس سنة 1880، وترجم هذا البحث إلى الروسية، وطبع في تفليس سنة 1889. ولائحة تتضمن ما ارتكبه البروسيون في فرنسا من المظالم والمسروقات والقساوات أثناء حرب سنة 1870 طبع في بيروت سنة 1871. وله كذلك مقال عن ختم السلطان المغولي الجايو - إنجيتو، خدا بنده، نشر في المجلة الآسيوية بباريس سنة 1869، المجلد الثامن، الصفحات (331-345). وأما أبحاثه التي نشرها عن النقود الإسلامية، فتضم (كتالوج النقود العربية في سنة 1879 au catalogue de monnaies arabes pubes publie en 1879 Liste des monnaies arabes) المطبوع في الموصل سنة 1891. وقائمة بالنقود الإسلامية Monnaies Musulmanes suite ، طبع في الموصل سنة 1880.

يصدر في شهر سبتمبر 1873 قرار بتعيين نيقولا سيوف في قنصلًا في بغداد، وكان يومها في بيروت يعمل في القنصلية الفرنسية هناك، منذ عام 1861، فغادر بيروت عن طريق البحر إلى طرابلس، ثم اللاذقية، ثم إسكندرون، ومن هناك سلك الطريق البري مع حاشية كبيرة تضم عائلته وبعض رجال الشرطة ومجموعة من الأطباء النمساويين، وغيرهم، وقد سلك الطريق القديم الذي اعتادت القوافل أن تسلكه، فوصل إلى مدينة حلب ومنها انطلق إلى ديار بكر، حيث بدأت رحلته النهرية إلى بغداد، فمر بعشرات القرى والمدن

الأثرية، وصادف أناساً من مختلف المشارب، وفاجأته بعض العادات والأوضاع الاجتماعية، وبعض المصادر الطبيعية، فوصل إلى الموصل، ومنها انطلق إلى بغداد، وقد استغرقت رحلته هذه من 9 سبتمبر إلى 1 نوفمبر 1873، أي حوالي 52 يوماً، وقد سجل فيها أهم ما شاهدته وأسماء جميع الأماكن التي مر بها والمسافات بينها، بُغية جعلها دليلاً للمسافر من سورية إلى العراق.

تكمن أهمية هذه الرحلة في أنها واحدة من الرحلات التي قام بها أحد أبناء المنطقة من دون أن يكون هدفه دينياً، على شاكلة الرحلات إلى البلاد المقدسة التي كانت منتشرة في ذلك الوقت، فالهدف من تدوين هذه الرحلة هو علمي بحت، كما أن أسلوب صياغة الرحلة بعيد عن التكلف الإنشائي، الذي كان يطبع كتابات ذلك العصر، عبر السجع والطباق والجناس وما شاكل ذلك. ونشرت هذه الرحلة في مجلة الجنان البيروتية عام 1874 في حلقات مسلسلة، ولم ينشر اسم مؤلفها في صدر المقالة بشكل واضح في الحلقة الأولى؛ بل نشر توقيعه في رسالته إلى رئيس تحرير المجلة، وقام تيسير خلف بجمعها في كتاب ونشرها بعنوان (رحلة نقولا سيوي في 1873).⁽¹⁾

الخط العربي

يلفت الخط العربي المكتوب على جدران وجامع الشيخ لؤلؤ بالموصل انتباهه نقولا سيوي، فيكتب يقول: «جامع عجيب مدفون فيه السلطان لؤلؤ، المدخل وضيق، إلا أن الباب البرونزي ذو صنع جميل، وقد جعل الصانع اسمه بارزاً وسط أحد الأطر. الضريح في الداخل، من خشب مشغول، وغطاء من قماش أخضر، والحيطان عارية ماعدا شريط مرمر يعلو متراً حول الجدران، يعلو هذا الشريط شريط آخر من مرمر أسود، عرضه عشرون إلى خمسة

(1) نقولا سيوي: رحلة نقولا سيوي 1873، تيسير خلف (تحقيق)، (دمشق: التكوين للتأليف والترجمة والنشر، 2009)، ص 5-13.

وعشرين سنتيمتراً، نقشت عليه آيات قرآنية من تطعيم مرمر أبيض»⁽¹⁾. يمر بالموصل أثناء وجود نيقولا سيوفي بها الرحالة الفرنسي جون آشرف، وانطباعاته كالعديد من الرحالة تأتي نتيجة مشاهدات سريعة، وملاحظات قد يبيدها أشخاص معينون لا يعكسون وجه الحقيقة، فلا عجب أن يقع في مبالغات وأخطاء ينبغي التنبيه إليها، وعدم اعتبارها حقائق تاريخية موثوقة.⁽²⁾ ويشير جون آشرف إلى أنه لاحظ وجود خطوط عربية على قبر قديم في سنجار بالموصل، أبدى بها نيقولا سيوفي اهتماماً خاصاً؛ بل إنه يكلف من يقوم بنسخها، ويبعث بها إلى العاصمة الفرنسية، فكتب يقول: «نمر قرب قبر عجيب وقديم جداً، إنه من الطابوق المشوي، تحمل الواجهة الشمالية منه كتابة يبدو أنها بالغة الأهمية، لكنني مع الأسف لست قادراً على أن أحكم عليها، إلا أن المسيو سيوفي قتلنا، المتبحر باللغة العربية يقدرها حق التقدير، وقد بعث بطبعها إلى باريس، أما من الناحية الفنية، فإن هذا القبر غريب حقاً، إذ توجد من جميع أطراف الباب، أسفل الكتابة، مقطعان من طابوق طبيعي مسبوك، برسوم مذهلة، وخطوط عريضة عرض سنتمترين، موشاة بزمرد الخزف المطلي الأزرق بشفافية كبيرة خالصة تماماً»⁽³⁾.

الخط الكوفي

يلحظ نيقولا سيوفي في مدينة ديار بكر بكل وضوح كتابات كوفية على سور المدينة ترجع لأيام الخلفاء العباسيين، فيكتب يقول: «أما مدينة ديار بكر، المدعوة قديماً بآمد، فهي مرتفعة المركز، وأكثر أبنيتها من الحجر الأسود، ومحاطة من جميع أطرافها، بسور متقن البناء، وهو إلى الآن بحالة محفوظة

(1) نيقولا سيوفي: مرجع سابق، ص 142.

(2) سهيل قاشا: مرجع سابق، ص 86.

(3) سهيل قاشا: مرجع سابق، ص 116.

نادرة في غير بلاد، حتى أن القادم إلى المدينة يراها عن بعد كقلعة، وفي نظرنا في بعض جهات السور كتابات كوفية في قرية حصن كيفا فكتب يصفها يقول: «قرية كبيرة ممتدة من قمة الجبل إلى الشاطئ تُدعى (حصن كيف)»⁽¹⁾، فأوقفنا الطوفين، وتحولنا إليها، وبعد أن جلنا بأزقتها وأسواقها غير المستوية، نظرنا أكثر بيوتها وحوانيتها منقورة في الصخور، وبأعلاها قلعة متهدمة لم يبق منها إلا الأبواب، فدخلنا الباب الأول ثم الثاني، وكلاهما من حديد، ونظرنا على الثاني كتابة عربية بها يذكر أنه أمر بهذا البناء سليمان بن غازي، ولكن من دون تاريخ، ولعل سليمان المذكور من دولة بني أرتق ملوك ماردين وديار بكر أو من السلجوقيين. ثم انتهينا إلى الباب الثالث فوجدنا على جوانبه كتابات كوفية مربعة محتوية على الشهادتين (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، وبعد أن نزلنا من القلعة دخلنا جامعاً قديماً متهدماً لم يبق منه سوى بعض قناطر، وقد جعلوه مقبرة وبه منارة جميلة جداً محفوظة من الخراب، وعليها أشغال وكتابات عربية دقيقة للغاية، ويوصل إلى أعلاها بسلمين كل منهما عدد 38 درجة، على شاطئ النهر من كل جهة دعامة مستندة إلى برج مستدير، وعلى القاعدة السفلى من كل دعامة رأينا ونحن في الطوف صوراً قديمة منحوتة، ولا بُد أن هذه الدعائم كان عليها في الأزمنة السالفة جسر عظيم»⁽³⁾.

(1) نيقولا سيوفي: مرجع سابق، ص 35.

(2) بلدة تركية حالياً، تقع على ضفاف نهر دجلة، تابعة لمحافظة بطمان جنوب شرق تركيا، بها منطقة أثرية. وكيفا السريانية تعني الصخرة. وأيضاً اسم بطرس الرسول بالسريانية، وقد أصبحت في الفترتين الأيوبية والمملوكية مملكة أيوبية كانت إلى جانب حماة آخر الممالك الأيوبية الصغيرة في المنطقة. ويكيبيديا الموسوعة الحرة، حصن كيفا، (تمت الزيارة بتاريخ 7 يونيو 2017).

(3) نيقولا سيوفي: مرجع سابق، ص 43، 44.

جين ديولافوا

تتجح القليلات من الرحلات في رسم وتصوير رحلاتهم في الجزيرة العربية، من بين هؤلاء النسوة الرحالة والأديبة والمستكشفة والصحفية والروائية وعالمة الآثار والمؤرخة الفرنسية مدام ديولافوا Madame Dieulafoy (1851 - 1916)، المعروفة عنها حبها وشغفها وولعها بالتاريخ القديم، والتي قامت برحلتها إلى العراق في عام 1299هـ / 1881م، في عهد والي بغداد تقي الدين باشا (1867-1869)، وتقدر وتندم في العثمانيين من ولاة وأتباع، وجدبت إرادتهم، واستتبع سيرهم، ويفهم من أقوالها أنها كانت تكرههم كأكثر الأمم الأوروبية يومئذ، وهي بغضاً موروثاً، كما يفهم من خلالها أنها كانت تحب الفرس، وهم أعداء العثمانيين آنئذ.

يعيش في فرنسا بين سنتي (1843-1920) مهندس معماري معروف، وعالم أثري كبير يدعى (مارسل ديولافوا)، له بحوث وتحقيقات قيمة في فن العمارة في الحضارات الشرقية. ومن المسائل التي تصدى لها والأسئلة التي أثارها: هل كان للحضارة الساسانية تأثير في الفن الإسلامي؟ ولقد تكلف في سبيل الإجابة عن هذا السؤال الكثير، إذ لم يشف غليله كل ما وقع في يديه من كتب تعنى بمثل هذه الموضوعات في أوروبا. ولم يجد بدأً من شد رحاله إلى الشرق، ليستقي منه معلوماته ويلبي طلبه في الإجابة عن السؤال. يمّم وجهه شطر الشرق أول مرة في عام 1881 على حسابه الخاص، وأمضى ما يقرب من سنة في تركيا وإيران والعراق، يُدقق النظر ويطلع على الأبنية التاريخية العتيقة فيها، حتى فتح الله عليه الجواب واطمأن له. وفي هذه السفرة كانت زوجته معه وهي معروفة بأسلوبها الرقيق وبموهبتها الفنية في الرسم، ولم تدع الفرصة تفوتها فأخذت على نفسها تسجيل يومياتها

وخواطرها منذ إقلاعها من مرسيليا حتى عودتها ثانية إلى فرنسا في كتاب بعنوان (رحلة ديولافوا إلى إيران وشوش وكلمة)، ولقد كان لصدور هذا السفر الجليل في باريس صدها البالغ وأثره البعيد ليس فقط لما تضمن من طرائف مستلمحة وأخبار غريبة عن تلك المناطق التاريخية؛ بل لما احتواه مما توصل إليه زوجها من حقائق واستكشافات، وإن كان قد خانته التوفيق في بعضها فبالغ في أهمية الفن الساساني وأثره في فن العمارة الإسلامية.

تولد جين بول هنري راشيل ديولافوا Jeanne Paule Henriette Rachel Dieulafoy بمدينة تولوز بفرنسا في 29 يونيو 1851، لعائلة ثرية، ودرست في دير العذراء في أوتيل إحدى ضواحي باريس (1862-1870)، وتزوجت بمارسيل ديولافوا في مايو 1870، وهي لا تزال في ربيعها التاسع عشر، ثم تطوع الزوجان في الحرب الفرنسية البروسية. وفي عام 1879 قرر الزوجان تكريس حياتهما للبحث عن الآثار، حيث قاما معاً، كما سبق الذكر، برحلة إلى وسط فارس عام 1881، بدأها من مارسيا إلى القسطنطينية، العاصمة العثمانية، وأبحرا على الساحل الشرقي للبحر الأسود على متن قارب روسي، وواصلتا رحلتهما إلى القوقاز وأذربيجان وتبريز، ومن هناك سافرا إلى طهران وأصفهان وشيراز، حيث قدم الزوجان العديد من الرسوم التوضيحية، واكتشفا الكثير من القطع الأثرية، التي نقلت إلى باريس، حيث لا تزال معروضة في متحف اللوفر، ولهذا منحتهم الحكومة الفرنسية لقب فارس، ووسام الشرف عام 1886.

يوصل الزوجان رحلاتهما بعد عودتهما من فارس، حيث قاما برحلات في أسبانيا والمغرب بين عامي (1888-1914)، حيث تطوعا للذهاب إلى المغرب في الحرب العالمية الأولى، حيث اعتلت صحة ديولافوا وأصيبت بالزحار الأميبي، واضطرت للعودة إلى فرنسا حيث توفيت بمدينة غاردون

العليا بفرنسا في 25 مايو 1916. وكانت ديولافوا تفضل في ترحالها ارتداء ملابس الرجال، وتقصير شعرها كالرجال، وربما ذلك تجنباً للصعوبات التي قد تواجهها في حال سفرها كامرأة في مجتمع مسلم لديه عاداته وتقاليد التي تختلف كلية عن عادات وتقاليد مجتمعها الفرنسي، وتركت ديولافوا الكثير من المؤلفات، منها فارس والكلدانيتين (باريس: 1887)، الشرق تحت الحجاب: شيراز بغداد L'Orient sous le voile. De Chiraz 1881-1882 (باريس: 1889)، في سوسة - 1884 À Suse 1886 (باريس: 1888)، المتطوعين Volontaire (باريس: 1892)، قشتالة والأندلس (باريس: 1908)، إيزابيل العظمى (باريس: 1920). وكانت عضوة في تحكيم الجائزة الأدبية منذ عام 1902 وحتى وفاتها.

تُسجل ديولافوا في رحلتها ملاحظات طريفة في سيرة وعادات العراقيين وأبستهم، وأحوالهم الاجتماعية الأخرى تسجيلاً مفصلاً، وغيرهم من الشعوب للمقابلة والمقايسة. وتكشف كتاباتها عن ثقافة تاريخية متميزة، كما تذكر الرأي السياسي لهذه الرحالة التي لم تعتد غير التصريح في كتابتها، وهو ما يجعل رحلتها إلى القصة أقرب منها إلى الرحلة، فلا ينفك القارئ فيها مُقبلاً على قراءتها حتى يتممها، مشغولاً بها، مفتوناً بما يتخللها من ملاحظات بارعة، ونكت فائقة، وانتقادات مرة. وفضول غريب يُصور طبيعة نسوية خاصة لا أثر لها عند غيرها من الرحالات الغربيات، ويُمثل طرازاً من التفكير يجب أن نطلع عليه، كما يُعرب عن حقيقة إخلاصها لزوجها، ومكابدتها المشاق من أجله، وأسلوبها أدبي بارع ممتع تعمدت فيه الإطالة خوفاً من أن يمل القارئ، فالرحلة قطعة أدبية رائعة وماتعة.⁽¹⁾

(1) مدام ديولافوا: رحلة مدام ديولافوا من الحجرة إلى البصرة وبغداد 1881م/ 1299هـ، علي البصري (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2007)، ص 7-10.

الخط العربي

ترصد ديولافوا الخط العربي على إحدى بوابات مدينة بغداد، إذ وجدت فوق إحدى بواباتها نقشاً يؤرخ فتح السلطان مراد الرابع، سلطان الدولة العثمانية (1623-1639)، لبغداد مع جيوشه العثمانية... وجاء في هذه الكتابة ما معناه: (دخل السلطان مراد في 24 ديسمبر سنة (1638) بغداد ظافراً بعد أن حاصرها مدة أربعين يوماً وكان دخوله من هذا الباب). وأغلق هذا الباب (هو باب الطلسم المعروف قديماً بباب الحلبة، نسفه الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى في مارس سنة 1917) بعد دخول السلطان، وهي تتكئ على برج مرتفع صنع من الآجر، وفوق السافات الأولى منها تاريخ إنشاء هذا الحصن الدفاعي ولقد جاء ذلك بعد ذكر آية من القرآن الكريم هي: (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)، وجاء في تسجيل تاريخها ما معناه: (هذا البناء أقيم بحسب أوامر الله سبحانه وتعالى، وأمر زعيمنا وكبيرنا الإمام أبي العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين⁽¹⁾، الذي يجب على العالمين أن يقدموا له فروض الطاعة والإخلاص جميعاً، أي إنه أنشئ بفضل الخاضع لله أبي العباس الذي خلفه زينة للعالم وجعله دليل وجوده... واستمطروا شأبيب الرحمة على روح آبائه وأجداده الطاهرين والفخر والعزة له، وأدعو أن يبقى ملاذ المؤمنين وحامي المستضعفين، أقيم هذا البرج سنة 628هـ (1230م) (الصواب: 618هـ / 1221م) وانتهى العمل به... اللهم صل على نبينا ورسولنا محمد وآله الطيبين الطاهرين)⁽²⁾.

تُشاهد ديولافوا كذلك الخط العربي على بناية المدرسة المستنصرية،

(1) خليفة عباسي حكم في بغداد بين عامي (575هـ / 1189م - 622هـ / 1225م).

(2) مدام ديولافوا: مرجع سابق، ص 69، 70.

والتي تأسست على يدي الخليفة المستنصر بالله العباسي في عام 630هـ/ 1233م، وكانت مركزاً علمياً وثقافياً هاماً في جهة الرصافة من بغداد، وتكتب تقول: «وعلى مسافة أبعد (من منارة سوق الغزل) توجد مدرسة عتيقة (تعني المدرسة المستنصرية) اتخذها الترك اليوم مخزناً للكمرك. وبنائية هذه المدرسة جميلة جداً وتزينها نقوش وكتابات كتبها خطاطون معروفون، والواقع أن الشخص يؤخذ بروعة تلك الكتابات والنقوش على سذاجتها»⁽¹⁾ ونلاحظ نظرة الرحالة الاستعلائية من لفظتها الأخيرة، فبالرغم من اعترافها بروعة هذه الكتابات والنقوش في دلالة على براعة الخطاط العربي المسلم عبر قرون طويلة، هي عمر حضارة عربية إسلامية ازدهرت في وقت كانت فيه أوروبا غارقة في بحار الجهل، نراها تعتبرها (ساذجة)، وهي النظرة الاستعلائية الغربية التي كانت، ولا تزال، سائدة في النظر للشرق وحضارته، وخاصة الدولة العثمانية، التي كانت تمثل حينئذ دولة الخلافة الإسلامية.

(1) المرجع السابق، ص 111، 112.

يوليوس أويتنج

يولد الرحالة والمستشرق الألماني يوليوس أويتنج Julius Euting (1839 - 1913) في مدينة (شتوتجارت) الألمانية، في 11 يوليو 1839، ويتلقى تعليمه الجامعي في علم اللاهوت، في معهدي بلاوبويرن وتونجن، وينتقل لدراسة العلوم الدينية في جامعة فورتمبرج، إلا أنها لم تستحوذ على رضاه، فينتقل إلى جامعة تونجن بألمانيا ليتخصص في الدراسات الشرقية لمدة أربعة أعوام (1857-1861)، ويتلقى دراساته العليا في اللغات والدراسات الشرقية في جامعات: لندن وأكسفورد وباريس، ثم يدرس علم الآثار والنقوش واللغات القديمة، وينبثق منها اهتمامه بالسفر والبحث العلمي، والكتابة حول النقوش والآثار، والدراسات الشرقية.⁽¹⁾

يبدأ أويتنج حياته العملية في عام 1866 موظفاً في مكتبة معهد مدينة تونجن. ويقوم خلال الفترة (1867-1870) بعدد من الرحلات، لجمع ودراسة النقوش السامية القديمة، ويؤدع الكثير منها بجامعة القيصر فلهم في شتراسبج. ويعين بعد انتهاء الحرب الألمانية-الفرنسية (1870-1871)، مديراً لمكتبة القيصر الجامعية. وفي عام 1869 يزور تونس، اليونان، تركيا، مصر، سورية، فلسطين، الجزائر، والجزيرة العربية. ثم يعين بروفيسيراً في كلية الفلسفة بجامعة شتراسبج في عام 1880. ويخطط منذ عام 1882 لزيارة الجزيرة العربية مرة أخرى، ويزداد حماسه بعد أن يعلم بقيام الرحالة الإنجليزي تشارلز داوتي Charles Doughty (1843 - 1926) بزيارة مدائن صالح، واكتشافه العديد من

(1) علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي.. ذاكرة جمالية ومعين للباحثين من كتابات الرحالة يوليوس أويتنج)، مجلة ومضات، العدد 26 (مايو 2016)، ص 43-45.

النقوش النبطية.⁽¹⁾

تبدأ رحلة أويتنج للجزيرة العربية في شهر مايو 1883، وتنتهي في أغسطس 1884، يرافقه الرحالة الفرنسي تشارلز هوبر Charles Huber (1837 - 1884)، الذي سبق له زيارة الجزيرة العربية في الفترة ما بين 1878-1882. ومن أجل أن يكون أويتنج مستقلاً اقتصادياً عن هوبر، الذي تحملت وزارة التربية والتعليم الفرنسية تكاليف رحلته العلمية، فقد قام بتوجيه خطاب إلى حاكم مقاطعة الأناضول واللورين، الكونت مونتييل يلتمس منحة مالية بمبلغ 12 ألف مارك؛ لتغطية مصاريف رحلته، وإجازة مدفوعة الراتب من عمله أستاذاً في الجامعة. إلا أن الرفيقيين لم يكملا الرحلة معاً، حيث اختلفا بسبب الغيرة بينهما، وخاصة من طرف هوبر، الذي كان يُقدم أويتنج على أنه خادمه، ولم يذكر اسمه في يومياته أبداً، وحاول عدة مرات إقناع أمير حائل أن يسمح له بزيارة تيماء والعلما من دون أويتنج رغم اتفاقهما المسبق على زيارة هذه الأماكن معاً، وإنجاز هدفهما بنسخ النقوش الموجودة في المنطقة، كما قام هوبر بنسخ نقوش يعلم أن أويتنج يُريد استساخها، ولهذا اختلف الرفيقان قبل النهاية المأساوية لهوبر، على يد دلييه في 29 يوليو 1884 بالقرب من جدة.⁽²⁾

يوصل أويتنج رحلته منفرداً إلى أن يصل ميناء (الوجه)، بمنطقة تبوك، في 5 أبريل 1884، ومنه يُبحر إلى ميناء القصير المصري، وبعد مسيرة خمسة أيام على الجمال يصل إلى مدينة قنا على نهر النيل، حيث يركب سفينة نهرية إلى أسيوط، ومنها يستقل القطار إلى القاهرة، ثم بورسعيد،

(1) عبد العزيز العنزي: (رحلة أويتنج من الشمال وحتى مدائن صالح)، مجلة ترحال، العدد 58، (ربيع الآخر 1436هـ/ فبراير 2015م)، 74-77.

(2) شارل هوبر: رحلة في الجزيرة العربية الوسطى 1878-1882، إيسار سعادة (ترجمة)، (بيروت: كتب للنشر والتوزيع، 2003)، ص 11، 12.

يافا، القدس، سمران، بيتراس، وأخيراً يُبحر من ميناء تريست الإيطالي إلى ألمانيا. وهكذا يعود إلى وطنه بعد محاولات عدّة للحصول على حجر تيماء، الذي اكتشفه هوبر خلال رحلته الأولى إلى جزيرة العرب في عام 1879، ولكن أويتنج طالب بالحجر مُدعياً أنه هو الذي اشتراه. وتُعدّ رحلته تلك من أهم رحلاته العلمية، حيث جمع خلالها آلاف النقوش الآرامية والنبطية والسبئية واللحيانية، ونشرها في مؤلفات عديدة.⁽³⁾

يقوم أويتنج منذ وصوله إلى ستراسبورج بالعمل على تحقيق ما جمعه من مادة علمية أثناء رحلته، وفي عام 1903 يختاره فلهلم الثاني Wilhelm II، قيصر الرايخ الألماني الثاني (1888-1918)، عضواً في فريق من المختصين الألمان لنقل قصر المشتى الأموي الذي اكتشفه الباحث النمساوي ألويز موزيل Alois Musil (1868 - 1944) من شرق الأردن إلى ألمانيا. ثم يُعين أويتنج رئيساً لمكتبة الجامعة (1900 - 1909). وتتدهور صحته في أواخر أيامه مما يضطره إلى التوقف عن السفر.⁽⁴⁾ ويقوم بنشر يوميات رحلته بعد عشر سنوات من انتهائها، فيُصدر الجزء الأول في عام 1896، أما الجزء الثاني فيُنشر عام 1914، بعد عام من وفاته، التي كانت في يوم 2 يناير 1913 في مدينة ستراسبورج⁽⁵⁾. ويعتمد أويتنج في يومياته على الوصف العلمي الصحيح، الذي يقوم على المشاهدة الواقعية، ويبتعد عن الخيال القصصي، ويحرص على تقديم وصف دقيق للمدن والقرى التي زارها،

(3) عوض البادي: الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، نص رحلة البارون إدوارد نولده مبعوث روسيا إلى نجد عام 1893م/ 1310هـ، (الرياض: شركة دار بلاد العرب للنشر والتوزيع، 2002) ص 56.

(4) يوليوس أويتنج: رحلة داخل الجزيرة العربية، سعيد بن فايز السعيد (ترجمة)، (الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1999)، ص 11-16.

(5) عوض البادي: الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية (منطقة الجوف ووادي السرحان) 1845-1922، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2002)، ص 173، 174.

والطرق والمسالك التي سار عبرها، ومناهل الآبار وموارد المياه التي وردتها، والجبال والصحراء، والآثار التي شاهدها، والمباني، والقلاع، والحصون التي احتمتى بها، وأحوال الطقس التي أحس بها، كما يحرص كذلك على تقديم وصف مُفصل للعادات والتقاليد، وأحوال المعيشة، للمجتمعات التي زارها، ولم يكتفِ بالوصف ونقل مشاهدته اليومية، بل إنه يُسخر موهبته في الرسم؛ لينقل صورة واقعية لمعلم، أو شخص، أو خلافه، لتكون المحصلة كتاباً يتضمن معلومات نادرة وقيّمة؛ قد لا نجدها في أي مصدر آخر، يُفيد الباحث والمؤرخ والجغرافيّ والاقتصادي والاجتماعي.⁽¹⁾

يتضح أن هدف أويتنج كان علمياً بحتاً، إذ أدت رغبته في جمع النقوش ودراسة الكتابات العربية القديمة إلى قيامه برحلته الشاقة إلى جزيرة العرب، التي استغرقت ما يربو على ثمانية أشهر، وكان حريصاً على نقل واستنساخ كل نقش وقعت عينه عليه، كما قدم وصفاً دقيقاً لكل موقع جغرافيّ أو عمراني أو أثري مر به. ويُمكن التعرف على مغزى رحلته من قوله: «اقتربنا الآن أكثر من بنايات المقابر الرائعة في مدائن صالح ذات النقوش النبطية الطويلة على واجهاتها، والتي من أجلها كان الهدف الرئيسي لرحلتي إلى جزيرة العرب».⁽²⁾

الخط العربي الشمالي

يكتب أصحاب النقوش العربية الشمالية القديمة لغتهم العربية بأربعة خطوط مشتقة من أصل واحد، يختلف بعضها عن الآخر في رسم أشكال بعض الحروف، وهي: الثمودي، الديداني، اللحياني، الصفوي⁽³⁾. ويقسم

(1) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 9، 10.

(2) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 220.

(3) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 89.

أويُنتج مجموعة النقوش التي عثر عليها مكتوبة في طريقه من حائل إلى تيماء إلى نوعين من الخطوط: الخط العربي الشمالي القديم (الشمودي)، والخط النبطي، ثم يقسمها إلى مرحلتين، الأولى تمثلها النقوش التي يظهر عليها لون القشرة الصخرية الفاتحة، وهي الأحداث عهداً، ويعود تاريخها إلى ما قبل ألف وخمسمائة سنة، من تاريخ رحلته في عام 1883. أما المجموعة الأخرى والتي أخذت خطوطها مع مرور الوقت لوناً رمادياً فهي الأقدم عهداً، وتمثلها النقوش المكتوبة تحت النقوش الأحداث عهداً. و«هنا يتبادر سؤال مؤداه، كم من مئات السنين تفصل بين المرحلتين، وإلى أي فترة تعود أقدم النصوص هنا، لقد شعرت بالأسى لأنني حينما كنت أنسخ النقوش لم أهتم كثيراً بلون النقش، هل هو ذو لون فاتح يميل إلى الصفرة أو أنه رمادي غامق»⁽¹⁾.

والخط النبطي، هو الخط الذي اشتقته قبائل الأنباط العربية في القرن الثالث قبل الميلاد من الخط الآرامي، واستمروا يكتبون به نصوصهم حتى القرن الرابع الميلادي، ومن هذا الخط تطور الخط العربي الذي نكتب به اليوم.⁽²⁾ ويتكون الخط النبطي من اثنين وعشرين حرفاً، تحتوي على ثمانية وعشرين صوتاً، ويكتب من اليمين إلى اليسار. ويتميز باستخدام الإعجام في بعض نصوصه المتأخرة، وربط الحروف بعضها ببعض، والتفريق بين أشكال الحرف في أول الكلمة وآخرها.⁽³⁾

أما الخط الشمودي، فلا يزال أصل اشتقاقه محط نظر بين الدارسين، فالبعض يعتقد أنه مُشتق من خط المسند، الذي بدأ استخدامه في جنوب

(1) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 149، 150.

(2) علي عفيفي علي غازي: (الخطوط العربية الأولى: نشأتها وتطورها)، صحيفة الحياة، العدد 17571، (14 مايو 2011).

(3) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 89.

الجزيرة العربية منذ القرن التاسع قبل الميلاد.⁽¹⁾ والبعض الآخر يرى أنه مشتق من الأبجدية البروتوسينائية. وتعود أقدم النصوص الثمودية المعروفة حتى الآن إلى القرن السادس قبل الميلاد. أما أحدثها فيؤرخ في القرن الرابع الميلادي، وقد انتشرت مجموعة النصوص الثمودية في أغلب مناطق الجزيرة العربية، بل تعدى انتشارها حدود العالم القديم ليصل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث كشف مؤخراً في ولاية (كولورادو) عن مجموعة من النقوش كُتبت بالخط الثمودي.⁽²⁾

الخط الآرامي

يهدف أويتنج من رحلته للوصول إلى حجر تيماء، المعروف كذلك بين أوساط الدارسين باسم (مسلة تيماء) الذي عثر عليه الفرنسي شارل هوبر في قصر طليحان، كما يذكر أويتنج، ومحفوظ الآن في متحف اللوفر بباريس تحت رقم (AO 1505)، ويعود تاريخ هذا الحجر إلى القرن السادس قبل الميلاد، وعليه نقش مكتوب بالخط الآرامي، ويتكون النص المكتوب من ثلاثة وعشرين سطراً تتحدث عن أمرين رئيسيين: الأول تنصيب أحد الكهنة في معبد الإله الوثني صلّم في تيماء، والثاني ينص على التزام المعابد الأخرى بتقديم محصول إحدى وعشرين نخلة ضريبة لمعبد الإله صلّم في تيماء.⁽³⁾ يقول أويتنج: «كنت أتحرق شوقاً ونحن نتجه إلى القصر لرؤية ذلك النقش

(1) عبد المنعم عبد الحليم سيد: (دور أسلاف عرب شمال الجزيرة العربية في نشأة الخط المسند اليمني القديم)، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الثامنة، (شوال 1402هـ/ يوليو 1982م)، ص 203-214.

(2) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 119؛ وانظر:

Bill McGlone (and others): Petroglyphs of Southeast Colorado and the Oklahoma Panhandle. (California: Mithare Production Corporation. 1994

(3) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 160.

النبطي، وبالذات النقش الآرامي القديم، نسبة إلى الشعوب الآرامية الذين أسسوا في مطلع الألف الأول قبل الميلاد ممالك وإمارات متعددة في بلاد الشام وبدؤوا منذ القرن العاشر قبل الميلاد يكتبون نصوصهم ذات الطابع السياسي البحث بخط مشتق من الأبجدية الفينيقية، ويتكون من اثنين وعشرين حرفاً، والذي قرأت عنه في مذكرات هوبر خلال رحلته الأولى للجزيرة العربية، وأرخته في التقرير الموجه من هوبر إلى وزير التعليم الفرنسي إلى فترة تعود على أقل تقدير إلى القرن الخامس قبل الميلاد»⁽⁴⁾.

يقوم أويتنج بنسخ النص المكتوب على حجر تيماء بالخط الآرامي، فيظل يفكر فيه، ويقول: «أدى تفكيري في ذلك الحجر إلى إصابتي بالقلق وعدم القدرة على النوم إلى القدر الذي جعلني أنهض عند الفجر، لأنظر من جديد على ضوء الشموع إلى الورقة التي نسخت عليها النقش». ويعثر أويتنج على كتابات بالخط الآرامي على جدران أحد المنازل في تيماء، فيقول: «ذهبت مع صانع السلاح زيدان في جولة خلال المدينة زرنا فيها أولاً منزل الخطيب محمد العتيق، الذي كان على أحد جدران مسكنه الداخلية حجر عليه نقش كتّب بالخط الآرامي»⁽⁵⁾.

الخط العربي

ينال الخط العربي اهتمام الرحالة أويتنج، لأنه الصورة المرئية للغة العربية، بالرغم من بدائية حروفه في مراحلها المبكرة، والتي لا تعدو في شكلها عن كونها رسوماً بسيطة تنقش على الحجارة بمواد بدائية ومهارات محدودة، وبلغت انتباهه في بلدة الحجر (مدائن صالح)، شمال غربي السعودية، كثرة النقوش المكتوبة بالحرف العربي، ويرى أن ذلك دليل البعد التاريخي

(4) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 157.

(5) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 161.

والجنود الحضارية، فيقول: «بعد ساعتين تقريباً من المسير مررنا بجوار جبل مُكْتَظ بنقوش ذات خطوط مختلفة، حيث تعلو صفحاته نقوش كتبت بالخط الآرامي القديم، والخط الثمودي، والخط النبطي، والخط اليوناني، والخط اللاتيني، وما تنوع هذه الخطوط هنا إلا شاهد واضح على العمق الحضاري والتعاقب التاريخي لبلدة الحجر، أما موضوعات هذه النقوش فتندرج تحت ما يُسمى (نقوش الذكريات)، التي من خلالها خلد أولئك القدماء أسماءهم على مر الزمن، يقول المثل الألماني (يد المجنون تلتطخ الجدار والطاولة)، ولكننا نحن المتخصصين بالنقوش والخطوط القديمة في غاية البهجة، لأن أيادي أولئك القدماء امتدت إلى الجدار والحجار لتدون عليها أسماءها، فحتى وإن كانت المعلومات التي تحتويها تلك النقوش عديمة المعنى والأهمية؛ فمن تلك الحروف القليلة يُمكن للمرء أن يستنتج معلومات قيّمة حول التاريخ واللغة والحضارة والدين وتاريخ تطور الكتابة».⁽¹⁾

ينتقل أويتنج إلى قرية جبة، التي تبعد حوالي 90 كيلومتراً شمال غربي مدينة حائل، فيعثر على كتابات بعدد من الخطوط منها النبطي والثمودي والآرامي، والكوفي العربي، فيقول: «بعد نصف ساعة من المسير كُنّا نقف أمام الصفحات الصخرية لجبل أم سلمان المملوءة بمئات النقوش، بعضها غير واضح المعالم، وبعضها الآخر عبارة عن أسماء أعلام، وقد لفت انتباهي من بينها ذلك النقش الذي كتب بقلم اللغة العبرية (الصحيح نبطي) وآخر كتب بالخط النبطي، وثالث كتب بقلم النقوش العربية الشمالية، والذي لا يزال إماكن اشتقاقه من الخط العربي الجنوبي القديم محط نظر بين الدارسين، وأخيراً ذلك النقش الذي كتب بالخط الكوفي، وبين تلك النقوش رسم العديد من الجمال والوعول ومناظر الحرب والصيد».⁽²⁾

(1) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 220.

(2) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 89.

يُثير الخط العربي بسعة إيقاعه، وإمكاناته الزخرفية، وجماليات نقوشه، شجون أويتنج، فيواصل استكشاف ونسخ كل ما أمكنه من نقوش ونصوص وكتابات، فيقوم بنسخ الكثير من النقوش المكتوبة بالحرف العربي في مدينة حائل، فيقول: «في مكان يُسمى (الأثي) وجدنا مجموعة من النقوش النبطية، وأخرى عربية قديمة، ترافقها بعض الرسومات الصخرية البدائية لبعض أشكال الحيوانات، وفي هذا المكان المحمي نسبياً أقام حيلان ونومان المخيم، أما نحن فقد استفدنا من ضوء النهار المتبقي في نسخ النقوش»⁽¹⁾.

الخط الكوفي

يُعتبر الخط الكوفي من أجمل الخطوط في العالم؛ فهذا الخط البديع باختلاف أنواعه وأشكاله، يُبهر كل من يُشاهده، حتى وإن لم يكن هذا المشاهد يعرف كلمة عربية واحدة، ولهذا يُميز أويتنج الخط الكوفي، ففي قرية إثره، شمال السعودية، يُلاحظ فوق باب مدخل منزل شيخ القرية، وعلى عتبة الدار العليا الحجرية، شكل هلال متقن الصنع، وبجانبه بعض علامات الوسم المنقوشة، وفي الموضع الحجري فوقها كتابة كوفية، الكتابة العربية القديمة، بالشكل الذي يوجد بالضبط على العملات النقدية العباسية.⁽²⁾ وكتب يقول: «حين تفقدت منزل الشيخ (شيخ إثره) عن قرب شاهدت فوق باب المدخل المؤدي إلى الفناء على القطعة الحجرية العليا رسماً بديعاً لهلال، وبجانبه بعض الرسوم (رموز قبائل البدو) محفورة على الحجر، وفوقها كتابة بالخط الكوفي تحمل العبارة نفسها المنقوشة على العملات التي كان العباسيون يستخدمونها، وهي (بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له. محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على

(1) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 144، 145.

(2) عوض البادي: الرحالة الأوروبيون، ص 181.

الدين كله ولو كره المشركون) وبجانب إحدى نوافذ الجدار الشرقي للقصر هناك رسم غائر لرأس إنسان مُحاط بإفريز جميل⁽¹⁾.

يُلاحظ أويتنج اهتمام رفيقه شارل هوبر بالخط الكوفي، فيذكر أنه عثر في قصر الأزرق، إحدى القلاع التاريخية في الأردن، على نقش عربي مكتوب بالخط الكوفي⁽²⁾. ويسجل ذلك يقول: «وروى هوبر بأنه لاحظ في قصر الأزرق نقوشاً بخط كوفي رديء»⁽³⁾. ويعثر أويتنج في تيماء على كتابات غير واضحة بالخط الكوفي، فيقول: «قمنا بعد العصر بجولة في الشعب خارج المدينة، حيث وجدنا بعض النقوش المكتوبة بخط كوفي غير واضح»⁽⁴⁾. ثم يعثر على نقوش أخرى، فيقول: «اجتازنا بطن الشعب ووصلنا إلى سور المدينة (تيماء) القديم والممتد من شرق المدينة إلى شمالها، وخلفه يقع المنخفض المحاط بحبل كشكل القوس، الذي يُسمى غار الحمام، الذي وجدنا في شعابه عدداً من النقوش الثمودية وأخرى مكتوبة بخط عربي كوفي، ولكنني بسبب قوة الرياح لم أتمكن من عمل بصمات ورقية لها بل اكتفيت بنسخها فقط»⁽⁵⁾. وعرض عليه إيراني مشهدي، نسبة إلى بلدة مشهد الإيرانية، أن يبيع له حجراً يحمل نصوصاً مكتوبة بالخط الكوفي، فقرر أويتنج الذهاب للاطلاع عليه، فيقول: «توجهنا...، لكي نشاهد الحجر الذي تحدث عنه المشهدي (سلطان الإيراني) وطلب مقابله مائة مجيدي، وهو حجر طوله متر ونصف، وعليه كتابات كوفية غير واضحة»⁽⁶⁾. ولعلها إشارة إلى حجر تيماء الذي ادعى هوبر أنه هو من اكتشفه.

(1) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 27.

(2) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 62.

(3) عوض البادي: الرحالة الأوروبيون، ص 232.

(4) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 159.

(5) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 187، 188.

(6) يوليوس أويتنج: مرجع سابق، ص 191.

ماكس أوبنهايم

يولد القانوني والدبلوماسي والسياسي والمستشرق والآثاري والمخطط الإنمائي والاستخباراتي، البارون ماكس فرايهر فون أوبنهايم Max Freiherr Von Oppenheim Baron (1860 - 1946) في 15 يوليو 1860 في مدينة كولونيا بألمانيا من عائلة مصرفية تمتلك بنك أوبنهايم، الذي أسسه جده الأكبر في القرن الثامن عشر. وهو الابن الثاني لألبريت وبيولا أوبنهايم. درس القانون في جامعة ستارسبرج Stasbourg عام 1879، ثم التحق بجامعة برلين بين عامي 1881-1883، حيث نجح في امتحان الدولة في فبراير 1883، وفي الشهر التالي حصل على الدكتوراه في القانون من جامعة جوتنج-Gottin gen، وله من العمر 23 عاماً. ولهذا يُعدّ واحداً من الشخصيات الفريدة، التي تملك اهتماماً كبيراً وتنوعاً هائلاً في مواضيع الحياة المختلفة.⁽¹⁾

يعود اهتمام أوبنهايم بالشرق إلى سنوات المراهقة، إذ أُهدي له كتاب (ألف ليلة وليلة)⁽²⁾، ثم نضج وتطور هذا الشغف، وظل ملازماً له، وموازياً لدراسته

(1) ماكس أوبنهايم: رحلة إلى مسقط عبر الخليج، محمود كبيبو (ترجمة) (بيروت: دار الوراق للنشر والتوزيع، 2009).

(2) ترك كتاب (ألف ليلة وليلة)، الذي ترجم إلى اللغة الفرنسية كأول لغة أوروبية يترجم لها على يدي الفرنسي أنطوان جالان (1704-1717)، ثم ترجمه ريتشارد بيرتون إلى الإنجليزية بين أعوام (1839-1841)، تأثيره على شغف الكثير من الرحالة الغربيين بالشرق العربي، منهم الفرنسي موريس هونوريه، البريطانية جيرتروود بيل، البريطاني ريتشارد بيرتون، البريطانية الليدي آن بلنت، الأمريكي ويليام سيبروك، الفرنسي سوانسن كوير، الأسباني أدولفو ريفادينيرا، الفرنسي فونتانييه. راجع علي عفيفي علي غازي: رؤية الرحالة لقيم وعادات عشائر العراق 1800-1958، رسالة دكتوراه غير منشورة (دمنهور: كلية الآداب جامعة دمنهور، 2014)، ص 45، 46؛ وليد كاصد الزيدي: بغداد في مذكرات رحلة فرنسيين مطلع القرن العشرين، (أبو ظبي: نادي تراث، الإمارات، 2013)، ص 94؛ بيتر برنيت: بلاد العرب القاصية، رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب، خالد أسعد عيسى: أحمد غسان سبانو (ترجمة)، (بيروت: دار فتيبة للنشر والتوزيع، 1990)، ص 312؛ أسعد عبد الفارس: (الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية أهدافهم وغاياتهم)، في كتاب دارة الملك عبدالعزيز: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية الجزء الأول، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 2000)، ص 590؛ الليدي آن بلنت: قبائل بدو الفرات عام 1878، أسعد الفارس؛ نضال خضر معيوف (ترجمة)، (دمشق: دار الملاح

للقانون، ودفعه ذلك لدراسة اللغة العربية تحت إشراف مدرسين خاصين، ثم يقوم في عام (1883-1884) بأول رحلة استكشافية في الشرق، ورحلة أخرى إلى المغرب العربي بعدها بعامين (1886). ولما بلغ الثالثة والثلاثين من عمره قام في صيف عام 1893 برحلة (من البحر المتوسط إلى الخليج العربي Van Mittelmeer Zum Persischen Golf)، أثارَت شكوك المسؤولين البريطانيين في المنطقة، فسجلوا تحركاته وتفصيل تنقلاته، وقد زار القنصل البريطاني في بغداد موكلر Mockler والمعتمد في مسقط سيرجيون يايكار Surgeon Yayakar، حيث استقبل كما يُعامل أي رحالة أوروبي.⁽¹⁾

يقوم في عام 1895 برحلة إلى أسطنبول سهلت له الحصول على معلومات قيِّمة لبحوثه واكتشافاته الأثرية في المنطقة. ثم عمل مستشاراً للقنصل الألماني العام في القاهرة (1896-1909)، حيث كتب إلى برلين أكثر من 500 تقرير ومذكرة، وفي غضون ثلاثة عشر عاماً ملأت تقاريره اثني عشر مجلداً، وتراوحت الموضوعات التي كتب عنها ما بين الاقتصاد والتاريخ والحركات الدينية والسياسية، كما رسم مُشجرات أنساب العائلات الحاكمة، وقدم وصفاً مُسهباً لتفاصيل الحياة القبلية والظواهر الجغرافية. وفي القاهرة بنى علاقات واسعة مع القادة العرب والأتراك، ولهذا كان

للطباعة والنشر، 1991)، ص 163؛ ويليام ب. سبيروك: مغامرات في بلاد العرب، عارف حديفة ونبيل حاتم (ترجمة)، (دمشق: دار المدى للنشر والتوزيع، 2006)، ص 303؛ سوانسن كوبر: رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك من البحر المتوسط إلى بومبي عن طريق مصر والشام والعراق والخليج العربي في 1893م، صادق عبد الركاابي (ترجمة)، (عمان: الأهمية للنشر والتوزيع، 2004)، ص 179؛ أدولفو ريفادينيرا: من سيلان إلى دمشق، صالح علماني (ترجمة)، (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2009)، ص 143؛ فيس جواد العزاوي: (التحف كما وصفها بعض المستشرقين الفرنسيين)، جريدة الجريدة، (13 أبريل 2006): (New Lady Anne Blunt: Bedouin Tribes of the Euphrates. (York: Harpers & Brothers Publisher. 1879). p. 142

(1) جاسم محمد جرجيس: (البدو)، مجلة ليوا، العدد 13، (يناير 2005)، ص 116-122.

موضع شك وريبة من السلطات البريطانية.⁽¹⁾ وفي عام 1899 اكتشف آثار تل حلف في سورية، وفي عام 1902 أصبح مسؤولاً عن مشروع سكة حديد برلين- بغداد، التي مولها البنك الألماني. وفي عام 1905 مثل ألمانيا في مؤتمر الاستشراق الرابع عشر، الذي عقد في الجزائر، واستغل الفرصة فتجول في ربوع الجزائر وتونس. وأرسل في عام 1908 مندوباً عن ألمانيا في مؤتمر الاستشراق الخامس عشر، الذي عقد في كوبنهاجن.

يُقدم أوبنهايم، في عام 1909، استقالته من عمله الوظيفي بشكل طوعي، إلا أن وزارة الخارجية الألمانية استدعته مرة أخرى في عام 1914، إذ تولى إدارة دائرة المخابرات الشرقية، والتي كانت مسؤولة عن الدعاية ضد بريطانيا وفرنسا، وتأليب الشارع العربي الإسلامي ضدتهما. وفي عام 1915 أصبح ملحقاً في السفارة الألمانية في أسطنبول، ليعود في عام 1917 إلى ألمانيا، ويلتحق بالعمل الأكاديمي، بعد الحرب العالمية الأولى، ويؤسس في عام 1922 مركز دراسات الاستشراق في برلين، كمؤسسة دراسية حوارية. ويقوم في عام 1925 برحلة إلى أسطنبول وأنقرة؛ ليقدم المشورة بخصوص الحدود بين سورية وتركيا. وفي عام 1929 قام بحملة استكشافية ثانية في تل حلف. وفي العام التالي افتتح متحف تل حلف في برلين مدعوماً من قبل عائلته وأصدقائه. وفي عام 1939 قام بأخر رحلة إلى سورية، حيث رحلته السلطات الفرنسية قسراً إلى ألمانيا. وتعرض بيته ومكتبه ومقتنياته الشرقية وآثار تل حلف في المتحف في عام 1943 للضرب بالقنابل؛ فرحل إلى درسدن. وفي عام 1945 بعد الحملة الجوية العنيفة على درسدن انتقل إلى بافاريا. وتوفي في 15 نوفمبر 1946 في (لانشت)، وفيها ووري جثمانه الثرى.⁽²⁾

(1) فراوكة هيرديبي: (التحديات الواقعة والمتخيلة لوضع بريطانيا في الخليج)، في كتاب عبيد علي بن بطي (محرر): كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور، (ديي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1996)، ص 256، 266.

(2) ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج؛ لبنان وسوريا، محمود كبيبو (ترجمة)، (لندن:

كتاب البدو

ينظر المؤرخون والباحثون إلى كتاب أوبنهايم الموسوم (البدو Die Beduinson)، باعتباره النتيجة الأهم لرحلاته العديدة في الخليج والجزيرة العربية، والذي نشره في أربعة مجلدات، طبع الأول والثاني منها في حياة المؤلف في لايبزج عام 1939، وساعده بروينلش. ثم أنجز البروفيسور كاسكل من جامعة كولون المجلدين: الثالث والرابع، بعدما نقحهما وأضاف إليهما، حيث استغرقا عشرين سنة أخرى لكي يُبصرا النور. يُعالج أوبنهايم فيها خصائص المجتمع البدوي في الجزيرة العربية، وأسلوب الحياة الرعوية، من النواحي التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأنثروبولوجية، وكذلك وصفاً للطبيعة الجغرافية، ثم يتناول تاريخ القبائل العربية، وأصولها وأنسابها، وترابطها، ومناطق تجوالها، وانتشارها، وديار كل قبيلة منها، واتجاه هجرتها. ووضع مخططات دقيقة لأنساب القبائل، وعلاقاتها السياسية والقروية، والصراعات فيما بينها. ولهذا يُعتبر كتاب (البدو) بمثابة دائرة معارف عن البدو، قبائل، وتواريخ، حضارة، وحياة.⁽¹⁾ وقد كرس أوبنهايم نفسه بهذا الكتاب بوصفه مستشرقاً في ألمانيا، وفي صفة الباحثين الأوروبيين.

يذكر أوبنهايم في مقدمة الجزء الأول من كتاب (البدو): «سُقدم كتابنا هذا معطيات إلى كل من يبحث عن معلومات حول سائر المسائل المتعلقة بأبناء الصحراء... إن هذا الكتاب حصيلة أربعين عاماً من العمل والملاحظات

دار الوراق للنشر، 2008)، ص 7-10.

(1) عمار السنجري: البدو بعيون غربية، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2008)، ص 63، 64؛ إبراهيم الحيدري: صورة الشرق في عيون الغرب، (بيروت: شركة دار الساقي، 1996)، ص 59، 69.

والتسجيلات الشخصية التي قمت بها في عين المكان»⁽¹⁾ ويقول عن هدف رحلته: «إن مذكراتي لم تكن مجرد وصف للرحلة وإنما حرصت أيضاً على الحديث عن البلاد والناس، عن تطورهم التاريخي، وعن انتماءاتهم العرقية والدينية. وفي أثناء ذلك رأيت من واجبي أن أتطرق بين حين وآخر إلى المصادر الكثيرة، التي تُعالج تاريخ وجغرافية سورية وبلاد الرافدين، والتي تشمل، إلى جانب المراجع الكلاسيكية لمؤلفين إغريقيين ورومان وعرب، وكذلك مؤلفات مؤرخين عرب حديثين، العديد من كتب الرحلات الأوروبية القديمة وعدداً كبيراً من المقالات العلمية الجديدة المنتشرة في مجلات كثيرة من الصعب الوصول إلى بعضها»⁽²⁾.

الخط النبطي

يُميز أوبنهايم الخط النبطي في قرية (الضمير)، التي يذكر أنها «آخر قرية في الشمال عثر فيها على كتابات نبطية. إحدى هذه الكتابات، تعود إلى عام 99 بعد الميلاد، اكتشفها البروفسور موريتس على عمود ثماني الأضلاع، عند وجودي هنا كان هذا العمود مرمياً على الأرض في أحد شوارع الضمير»⁽³⁾.

الخط العربي

يستهل أوبنهايم رحلته إلى الخليج العربي عبر بلاد ما بين النهرين من دمشق، حاضرة الخلافة الأموية، فيشير إلى اهتمام أهلها بالخط العربي، فيذكر أنه «في الآونة الأخيرة أصبحت موضحة أن يُستعاض في البيوت القديمة عن تزيين أجزاء من الجدران بالزخرفة العربية والآيات القرآنية،

(1) ماكس فرايهر فون أوبنهايم: البدو، الجزء الأول: ما بين النهرين (العراق الشمالي) وسورية، مشيل كيلو ومحمود كيبو (ترجمة)، (لندن: شركة دار الوراق للنشر، 2007)، ص 1-3.

(2) ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج، ص 11.

(3) ماكس فون أوبنهايم: مرجع سابق، ص 271.

برسومات كبيرة تظهر فيها مناظر طبيعية أو مبان أو ما شابه». (1)

يلحظ أوبنهايم وجود العديد من النقوش والكتابات بالخط العربي في قرية (بُصرى)، فيذكر أنه عثر فيها على (الكثير من الكتابات العربية القديمة بالخط النسخي في بصرى، ومنها مثلاً، كتابة على حجر فوق باب جامع صغير يقع قرب بركة موجودة خارج حقل الآثار الرئيس، تفيد بأن الجامع قد بني في عام 655هـ (1257م) وفيما يلي نصها: «لا إله إلا الله، الله وحده، محمد رسول الله، بسم الله الرحمن الرحيم، الله رب العالمين. بني هذا المسجد المبارك سنة خمس وخمسون وستماية، رحم الله من دعا لروحه بالرحمة». (2) ويعثر أوبنهايم على كتابات بالخط العربي في بُصرى، على مسجد آخر يُطلق عليه الأهالي اسم (مسجد عمر بن الخطاب)، ولكن يلفت انتباهه (بشكل خاص بقايا إفريز حول أحد الحيطان مزخرف بكتابة بالخط الكوفي من الجبس. وعلى الجدار الخارجي للجامع، عند المدخل الرئيسي، مقابل بقايا غرفة أمامية، توجد عدة كتابات ذكر في إحداها الاسم عبد الرحمن المصري). (3)

يوصل أوبنهايم تقديم وصف للوحات مكتوبة بالخط العربي عثر عليها واكتشفها ويميز خطها عن سائر الخطوط الأخرى التي يملك الكثير من الخبرة فيها، فيذكر أن الجزء العلوي من قلعة بصرى، أو ما يُمكن أن نسميه المنصة الأرضية عبارة عن مسرح ضخم على شكل نصف دائرة لم تزل تزينه بعض الأعمدة الجميلة. وعند المدخل اليميني إلى خشبة المسرح بنى الأيوبيون مخزناً كبيراً للأسلحة كتبت على مدخله القوسي العبارات التالية:

(1) المرجع السابق، ص 76.

(2) ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج، ص 221.

(3) ماكس فون أوبنهايم: مرجع سابق، ص 221.

«أمر بعمارة هذه الزردخانه المباركة مولانا السلطان الملك الصالح العادل عماد الدين أبو الفدا إسماعيل ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب رحمه الله ابن الأمير بدر الدين داود بركيز اللاه الصالحي في شهور سنة تسع وعشرين وستمائة». وحسب هذه الكتابة قام بتشيد هذا المبنى سلطان دمشق الأيوبي الصالح إسماعيل ابن العادل في عام 629هـ (1231/1232م). ويعتقد بأن هذه الكتابة ومعظم الكتابات العربية الأخرى الموجودة في القلعة تعود إلى العهد الأيوبي، وبالتحديد إلى القرن الثالث عشر الميلادي.⁽¹⁾

ينتقل أوبنهايم في رحلته إلى قرية صلخد، وهي قرية شرقي سورية، بها الكثير من الآثار الإسلامية التي تعود للعصر الأيوبي، فيقول إنه وجد (في قلعة صلخد كمية كبيرة من الكتابات العربية بالخط النسخي، أورد منها تلك المتعلقة بإصلاح البرج واستكمال بنائه: أمر بتجديد هذا البرج المبارك الأمير فخر الدين الملكي في أيام الملك العادل أندكير أيوب (الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب 592-615هـ/ 1196-1218م). وكتب على أحد الأبواب: أمر بعمارة هذا البرج المبارك الأمير ابن رواح في أيام الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أيوب سنة إحدى وستمائة (601هـ/ 1204م). وكتب على الجهة الخارجية الجنوبية للسور: بسم الله الرحمن، أمر بعمارة هذه القلعة المباركة مولانا السلطان العالم العامل المجاهد المظفر المنصور الملك الصالح فخر الدنيا والدين أيوب ابن حمدان بن أبي بكر بن أيوب خليفة أمير المؤمنين بتاريخ ستة من جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وستمائة بولاية العبد الفقير إلى الله تعالى علي ابن الإمام أحمد ابن صالح النجباني الصالحي). ويذكر أن (هذه الكتابة منحوتة بشكل جميل في حجارة السور المربعة في مكان غير بعيد من جسر مهدم الآن يمر

(1) المرجع السابق، ص 222.

فوق حفرة البرج. ومن المحتمل أن تكون هناك كتابات أخرى مطمورة تحت الركام المحيط بالسور). ثم يُشير إلى أنه (من المؤكد أن المدينة (صلخد) أيضاً شهدت بعض التطورات العمرانية كما تشهد على ذلك مئذنة الجامع الكبير الواقع في وسط المدينة التي بناها المملوكي السلطان عز الدين أيك في عام 603هـ / 1225م والتي كتب عليها: (بسم الله الرحمن الرحيم، بإذن الله أمر برفع الفقير عز الدين أيك ولد الملك المعظم عيسى بن أبي بكر أيوب في سنة ثلاث وستمئة أجره وأثابه الله بولاية مملوكه منصور). كانت الكتابة مسجلة بالخط النسخي على شريط رخامي يلتف حول برج المئذنة الثماني الأضلاع ومثبت على ارتفاع شاهق بحيث لم يكن من الممكن قراءتها إلا بصعوبة وبواسطة منظار مقرب).⁽¹⁾

الخط الكوفي

يتميز الخط الكوفي باستقامة زواياه، ولهذا من السهولة تمييزه عن سائر أنواع الخطوط العربية، ولهذا يتعرف عليه كل الرحالة المهتمون بالكتابات والنقوش العربية، ومنهم أوبنهايم، الذي أكد عثوره على كتابات بالخط الكوفي في جبل الدروز، على (بناء واسع مزين بأعمدة وأقواس، يُسمى القصر)، فيذكر أنه «يوجد على جداره الخارجي بالقرب من الباب كتابة كبيرة بالخط الإغريقي، وكتابة عربية قصيرة بالخط الكوفي»، ويشير إلى أن الكتابة الإغريقية تتألف من 13، 5 سطرًا... أما الكتابة العربية فقراءتها صعبة، ويبدو أن العلامات تنص على ما يلي: «أمر بهذا المسجد الملك العالم، وتحتها يوجد عدد من الأسطر بخط ناعم جداً».⁽²⁾ ثم يشير إلى أنه رأى على حجر بالقرب من جسر قرية جميرين «كتابة عربية كبيرة بالخط

(1) ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج، ص 226، 227.

(2) ماكس فون أوبنهايم: مرجع سابق، ص 207، 208.

الكوفي. كان الحجر ملقياً على الأرض بالقرب من البرج المذكور سابقاً، وهو مأخوذ، حسب أقوال السكان، من الجسر الذي كما يبدو للعيان قد تم تجديده في العصر العربي⁽¹⁾.

يعود أوبنهايم لتاريخ ما قبل الميلاد، فيذكر أن الرومان كانت لهم محطة رئيسة في «جبل سيس كانت مهمتها مراقبة بدو الحرة وحماية سورية من الهجمات القادمة من الشرق» وأنه عثر فيها على نقوش «لاتينية أو إغريقية لم يعثر عليها أحد، لا فوغيه أو وادينغتون ولا شتوبل... أما الكتابات الكوفية القليلة التي عثر عليها فوغيه فتعود إلى العهد الإسلامي⁽²⁾».

يجتاز أوبنهايم وادي الكبير، ليصل إلى قصر الحير، الذي يرى أنه «يعود في الأصل إلى العصر الروماني القديم، وكان على الأرجح قلعة صغيرة، قد تم تجديده في عهد الخلافة العربية» ولهذا عثر فيه على «كتابة بالخط الكوفي تتحدث عن أن الخليفة الأموي عبد الله هشام (بن عبد الملك) قد بنى قصر الحير من جديد. غير أن هذا المبنى العربي لم يتبق منه أي شيء، إذ إن الآثار الباقية تعود دون أدنى شك إلى العهد الروماني التدمري، ومما يلفت الانتباه بشكل خاص الجدران العالية لبرج سابق مربع الشكل، والجسر الحجري لبوابة ضخمة المزين بزخارف في غاية الجمال⁽³⁾».

ينتقل أوبنهايم إلى تدمر، فيلاحظ انتشار كتابات بالخط الكوفي على جدران مسجد تدمر، فيذكر أنه عثر «هنا على سورة القرآن بالخط الكوفي». ورأى «سقوفاً رائعة الجمال، وزخارف جدارية جميلة استعملت في تشكيلها رموز الأبراج السماوية (أبراج الحظ) وأشكال هندسية مختلفة تذكرنا

(1) المرجع السابق، ص 218، 219.

(2) نفسه، ص 264، 265.

(3) نفسه، ص 290، 291.

بموضوعات شرقية، وهناك أيضاً تزيينات بأوراق النباتات وأكاليل الزهور الأنيقة التي يمكن أن تكون قد نشأت في عصر لويس السادس عشر، وتيجان وزخارف ناتئة وديكورات من مختلف الأنواع يعبر تباينها الشديد عن أشكال من الفن الكلاسيكي القديم، ونماذج من أسلوب العصر الإمبريالي»⁽¹⁾.

(1) نفسه، ص 328، 329.

جيرتروود بيل

تُعرف الرحالة البريطانية جيرتروود مارجریت لوئیان بیل Gertrude Bell (1868 - 1926)، بأنها (شاعرة، مؤرخة، عالمة آثار، ناقدة فنية، متسلقة جبال، مستكشفة، بستانية، أستاذة تاريخ طبيعي، خادمة مميزة للدولة).⁽¹⁾ فهي أول امرأة في التاريخ الحديث تُسجل مدوناتها السياسية والتاريخية في رسائل، نشرت في مجلدين يتناول الأول منهما الفترة (1889-1914) والثاني الفترة (1914-1926). وتُعدّ المس بیل من أهم الشخصيات البريطانية التي أسهمت في صنع الخريطة السياسية والجغرافية للمنطقة العربية عامة، والعراق خاصة، في القرن العشرين، ودورها بالغ الأهمية، إن لم يكن حاسماً، في الصيغة التي أخذتها المنطقة في أعقاب الحرب العالمية الأولى (1914-1918). ولدت جيرتروود بیل بواشنطن عام 1868 في عائلة أرستقراطية، وعندما كانت صغيرة جداً انتقلت عائلتها إلى (ريد كار)، وتلقت تعليمها الأولى في المنزل، وبعدها انتظمت بالدراسة في مدرسة بالعاصمة البريطانية، وبعد إكمالها تحصيلها المدرسي، تلتحق في عام 1886، وهي في ربيعها العشرين، بجامعة أكسفورد لدراسة التاريخ، وفي الثانية والعشرين من عمرها تنهي دراستها الجامعية، وتحصل على أعلى الدرجات في دورتها، ثم تمارس العمل الاجتماعي لمدة سنتين في مدينتي لندن ونيويورك.

تذهب المس بیل، أو الخاتون كما كان يُطلق عليها العراقيون، في رحلة استكشافية طويلة إلى أوروبا بين عامي (1897-1899)، حيث كانت شغوفة بتسلق الجبال، وتعال الإعجاب عندما تتسلق جبال الألب، إذ هبت رياح شديدة فبقيت على الحبل لمدة 53 ساعة. تعلمت المس بیل الفارسية،

(1) ليدي بيل: رسائل جيرتروود بيل 1899-1914، رزق الله بطرس (ترجمة)، (بيروت: دار الوراق للنشر المحدودة، 2008)، ص 20.

وزارت إيران في عام 1892، ونشرت رحلتها إلى إيران في كتاب تحت عنوان (صور فارسية)، كما قامت بترجمة أشعار حافظ الشيرازي. بدأ اهتمامها بالعرب والحياة العربية نهاية القرن التاسع عشر بداية القرن العشرين، حيث قامت برحلة في شتاء عام (1899-1900)؛ لزيارة القدس، وتعلم اللغة العربية، والقيام ببعض الاستكشافات الأثرية؛ لتستحق بجدارة نتيجة لك أن تُمنح الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية الملكية The Roy-Geographic Society. وكانت المس بيل تجوب المنطقة بحجة البحث عن الآثار مرة، وبحجة دراسة لهجات البدو مرة أخرى، وبحجة الإلمام بأصول القبائل وأنسائها ثالثة، إلى أن وصلت إلى أعماق الجزيرة العربية في محاولة لاستمالة عدد من شيوخ البدو إلى جانب الحكومة البريطانية، وتعبئة عواطف العرب ضد العثمانيين، الأمر الذي أدى إلى احتجازها في حائل من قبل ابن رشيد الذي كان موالياً للعثمانيين إلى أن تم الإفراج عنها وترحيلها من الجزيرة العربية، ورغم ذلك لم تهدأ، ولم تتوقف عن المغامرة والتجوال في بلدان المنطقة، مما ساعدها أكثر على إتقان اللغة العربية، إضافة إلى الإلمام بتفاصيل المنطقة ومشاكلها.

تنتدب الحكومة البريطانية المس بيل للعمل في العراق أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي نهاية عام 1914 تصل إلى العراق، وبعد سقوط بغداد تُعين السكرتيرة الشرقية للحاكم السير بيرسي كوكس Sir Percy Cox، أحد أبرز صانعي السياسة البريطانية في الجزيرة العربية والشام. ماتت جيرتروود بيل، ولم تبلغ الرابعة والخمسين عاماً، ودفنت في بغداد، بعد أن ووري جثمانها الثرى في عصر يوم 2 يوليو 1926 في المقبرة العسكرية البريطانية في بغداد، والمعروفة حتى وقت قريب باسم (مقبرة الإنجليز). وقف المندوب السامي البريطاني السير هنري دوبس يرثي المس بيل، وقال في ختام كلمته

التأبينية: «إن عظامها ترقد حيث أرادت لها أن ترقد في تربة العراق». وهكذا رحلت الخاتون بعدما تحقق جزء كبير من أحلامها الكثيرة، وتركت بصماتها الواضحة على عمليتي تشكيل الحكم الوطني، والانطلاق بحكم العراق. وعلى حد تعبير السير نايجل دايفدسون Sir Nigel Davidson فإن العالم لم يشهد أبداً من كان باستطاعته منافسة جيرتروود بيل في مضمار معرفة التفاصيل المتعلقة بالقبائل العربية ورؤسائها وأسرههم، إذ لم يحظ أحد بما حظيت به من فرص، تم لها بفضلها الحصول على المعلومات التي قدر لها جمعها من خلال رحلاتها وأسفارها. ولو كتب لها العيش فترة أطول لتمكنت من أن تحصل على رتبة مفوض Commissioner مدى الحياة، ولقدر لها أن تحيا بعد الحرب حياة كريمة كتلك التي شاءت الأقدار أن تحياها كل من الليدي إيستر ستانهورب Lady Hester Stanhope، والليدي إيلينبورو Lady Ellenborough، بوصفهما من ذوات المكانة الرفيعة.⁽¹⁾ وأخيراً تركت المس بيل رسائل يبلغ عددها 1600 رسالة، وكذلك يوميات بلغ عددها 16 مجلداً وملاحظات خاصة بلغ عددها 40 كتيباً صغيراً، بالإضافة إلى 7000 صورة.⁽²⁾

الخط العربي

تقوم جيرتروود بيل خلال السنوات التي قضتها في العراق (1914-1926) بجولات في كافة ربوع البلاد شمالاً وجنوباً، وطافت ببواديه ونزلت ضيفة على مشايخ عشائره، وزارت قراره ومدنه ووصفتها، وكتبت عن عاداتها وتقاليدها وقيمها بإسهاب، ولما كانت لمحة قوية الملاحظة، فقد لفت

(1) إليزابيث بيرغوين: جيرتروود بيل من أوراقها الشخصية 1914-1926، نمير عباس مظفر (ترجمة)، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002)، ص 10-12، 23-25، 31-33، 105-106.

(2) ليدي بيل: رسائل جيرتروود بيل، ص 8-11.

انتباهها أية نقوش بخطوط عربية أو غير عربية، فنراها تشير في إحدى رسائلها إلى انتشار الخط العربي في مدينة بصرى، فتقول: «كانت هناك كتابات في كل مكان باللاتينية واليونانية والكوفية والعربية منقوشة، دخلت في بناء جدران بيوت الفلاحين على نحو مقلوب، بالإضافة إلى بلاطات مثقوبة كانت في السابق نوافذ، وقطع من أعمدة أو تيجان لأعمدة».⁽¹⁾

تواصل المس بيل رصد النقوش والكتابات بالخط العربي، في دليل على اهتمامها به، وتمييزها له، ومعرفتها بقواعده، فتذكر في رسالة أنها استطاعت أن تميز الخط العربي في (قرة داغ) بآسيا الصغرى، إذ تصف قرية (مادن شهر) بأنها «تتألف من 15 عائلة تركية بنوا لأنفسهم أكواخاً من الأنقاض، لكن هناك عادة تركية هي أن كل قرية مهما كانت صغيرة يجب أن تحتوي غرفة ضيوف للمسافرين فذهبنا لنتحقق. نعم طبعاً قال شيخ القرية هناك (أوضة (غرفة)) في بيته، وإنني على الرحب والسعة فيها. حالما رأيته علمت أن أعز أحلامي قد تحقق. كانت غرفة صغيرة مبنية من الطين فارغة، واسم الله منقوش في مكان عال على الجدران، وأمام الباب كان هناك منبسط يشرف على السهل الكبير، وعلى منحدرات قرة داغ. الجميع يعتبرونني أمراً طبيعياً، سوى الكلاب التي لا تزال تنبح بهياج كلما مررت. وكذلك بيتي جميل بجدرانه من الطين، واسم الله مكتوب عليها: الله - الله، وخدمي رائعون».⁽²⁾

تعثر المس بيل في قرية (أم الرمان) على العديد من النقوش والكتابات، والتي كان من بينها ما هو مكتوب بالخط العربي، والخط الكوفي، حيث استطاعت تمييز الخط الكوفي، ذلك الخط الذي يتميز باستقامة حروفه

(1) ليدي بيل: رسائل جيرترود بيل، ص 77.

(2) ليدي بيل: رسائل جيرترود بيل، ص 204، 205.

وكتاباته، فتقول: «بدأت يومي بطريقة هادئة جداً أنسخ بعض الكتابات، وكنت محظوظة أنني وجدت بعض الكتابات اليونانية، وواحدة كوفية، وواحدة نبطية، ولا يعلم الله ماذا تعني، لكنني نسختها بأمانة، وسيقرؤها المثقفون... وفي مكان آخر كانت هناك كتلة من الصخور مغطاة بنقوش: نبطية، يونانية، وكوفية، وواحدة في تشوش، لا أعرفها، لكنها كانت تشبه إلى حد كبير أقدم مخطوطة من سبأ باليمن. وأخيراً كتب الأعراب علامات قبائلهم هناك بطريقة سريعة غير مقروءة. هكذا سجل كل منهم مروره بطريقة خاصة به»⁽¹⁾.

الخط الكوفي

يُعد الخط الكوفي من أقدم الخطوط العربية، وأقربها إلى الشكل الهندسي، اشتق من الخط النبطي (خط أنباط العراق) المتأخر، المعروف بالخط الحيري أو الأنباري، وسُمي بالخط الكوفي تيمناً بمدينة الكوفة، واشتهر في البداية بالخط اليابس، بسبب قيام بنائه على خطوط مستقيمة، وزوايا حادة، لاستقامة حروفه؛ التي تحتاج كتابتها إلى الأدوات الهندسية، ولهذا استطاعت المس بيل أن تميز الخط الكوفي بسهولة ويسر، فتذكر أنها شاهدت كتابات كوفية على حصن برج برقة الرئيس، فتقول: «ثبت أن برقة ممتعة حقاً، هناك كتابة كوفية جيدة فككت رموزها، يعود تاريخها إلى العام 81 هجرية، ولما كانت كتابات القرن الأول الهجري نادرة جداً فهي مهمة على نحو استثنائي»⁽²⁾.

تستمتع بيل برحلتها إلى جبل طيبق، وتشعر بالسعادة عند عثورها على نقوش وكتابات بالخط الكوفي، فتقول: «في المقام الأول كانت الآثار تستحق

(1) ليدي بيل: رسائل جيرتروود بيل، ص 156، 166.

(2) ليدي بيل: رسائل جيرتروود بيل، ص 297.

أن أراها. فيها رموز كوفية وكلها كاملة، ولكي أصل إليها ركبت خمس ساعات عبر جبل طبيق، رأيت وصورت المكان العالي، قبل الإسلام (كما ظننته) وأخذت فكرة أفضل بكثير عن هذه التلال الممتعة جداً. فهي مليئة بالجمال المتوحش والأساطير، تستحق دراسة طيلة شهر كامل»⁽¹⁾.

(1) ليدي بيل: رسائل جيرتروود بيل، ص 320، 321.

الليدي درور

تعدّ الليدي درور، أو أثل ستيفانا ستيفنس Ethel Stefana Stevens، أول حالة ومستشركة بريطانية، تهتم بتاريخ الأديان في العراق، فكتبت عن اليزيدية Peacock Angel، واتصلت بهم بصورة مباشرة، وعاشتهم عن قرب في أماكن تواجدهم مدة تزيد عن الأربعين عاماً، قضتها في دراسة ومشاهدة وممارسة طقوسهم الدينية لإتقانها وتسجيلها تسجيلاً دقيقاً. ويُعتبر كتابها عن الصابئة المندائيين The Mandaean المرجع الأجنبي الرئيس عنهم، ولغتهم، التي هي إحدى اللغات الآرامية الشرقية. وقد استمر بحثها عنهم مدة ربع قرن تقريباً بعد انتهائها من كتابها المطبوع في عام 1937، ونتج عن تتبعها ودراستها لدينهم ولغتهم أن قامت بالتعاون مع الدكتور رودولف ماتسوخ بتأليف قاموس مندائي إنجليزي موسوم (قاموس اللغة المندائية)، طبع في عام 1963 في أكسفورد، ويعتبر المرجع الوحيد في لغة الصابئين في الوقت الحاضر. كما قدمت مؤلفاً في بلوغرافيا المخطوطات المندائية، وإليها يعود الفضل في أكثر الدراسات التي ظهرت في بريطانيا في بداية القرن العشرين حول الصابئة المندائيين.

تُولد الليدي درور في الأول من ديسمبر 1879 بلندن، وتقضي طفولتها المبكرة في نيو فورست New Forest، حيث كان والدها يعمل قسيساً في كنيسة بيرلي Burley. ثم تعلّمت لغة العجر في شبابها، وعندما انتقلت عائلتها إلى ساوث هامبتون بعد أن عُين والدها رئيساً لأبرشية المدينة، قامت بوضع قاموس عن لغة العجر مستعينة بكتاب خاص عن قواعد اللغة السنسكريتية. وعلى الرغم من أن هذا القاموس لم ينشر في حينه إلا أنه يقوم دليلاً على اهتماماتها اللغوية التي تخصصت فيها لاحقاً. كانت أثل متفوقة في دروسها

إلا أنها لم تلتحق بالجامعة لظروف أهلها المادية، وسافرت إلى ألمانيا لدراسة الموسيقى والعزف على آلة الكمان، ولكن سرعان ما تملكها الملل فعادت إلى بريطانيا بعدما شعرت أن لديها الرغبة في الكتابة. والتحقت بمدرسة خاصة بالصحافة في لندن أتاحت لها تدريباً ممتازاً في مجال مراجعة ونقد الكتب المعدة للنشر، وكذلك إعداد التقارير وإجراء المقابلات الصحفية. وقد توفرت لها فيما بعد فرصة طيبة للعمل سكرتيرة لدوجلاس سليدن صاحب موسوعة Who Is Who المعروفة التي كان يتهافت المشاهير لنشر أسمائهم فيها، فتعرفت على كثير من الأدباء والمؤلفين والنقاد والمترجمين والمستشرقين والشعراء، وأقامت نوعاً من الصداقات مع بعضهم.

ترافق أثل سليدن وزوجته وابنه إلى جزيرة صقلية، حيث كان يُعدّ كتاباً سياحياً عن منتجعها الشتوي في ساراكوزا، وكانت مهمة أثل هي جمع المعلومات المتعلقة بتاريخ وتراث وتقاليد شعب صقلية. وفي هذه الأثناء بدأ سليدن يناديها باسم (ستيفانا) تحبباً، وبقي هذا الاسم مرافقاً لها، وأصبح الجميع يناديها به، حتى عائلتها. وقد سافرت ستيفانا مع سليدن وعائلته إلى تونس لوضع كتاب سياحي عن معالمها، وأسهمت بكتابة بعض فصوله، وأعدت كتاباً سياحياً عن جزيرة صقلية الإيطالية. إلا أنها عشقت تونس، وشرعت بتعلم اللغة العربية، والكتابة عن سحرها وشيوخها وأمرائها وآثارها الفريدة ومدنها القديمة. وبعد انتهاء مهمتها مع سليدن عادت إلى لندن وعملت في دار للنشر والتأليف، ولكن حينها لتونس جعلها تقترض بعض المال فعادت إليها بصحبة صديقة لها، وأقامتا في مدينة القيروان، التي كانت مهداً لروايتها الأولى (النقاب)، التي لاقت رواجاً كبيراً مما أمن لها دخلاً جيداً أتاحت لها التجوال في منطقة الشرق الأوسط خلال السنين التالية، فسافرت إلى إسطنبول ثم حيفا والقدس، حيث التقت في جبل

الكرمل بعبد البهاء الرئيس الروحي والديني للبهائيين، وأقامت صداقة مع بناته. توسم عبد البهاء⁽¹⁾ في (ستيفانا) ذكاءً متوقداً إلا أنه لم يفلح في إقناعها باعتناق البهائية، بالرغم من إقائه المواعظ الدينية الطويلة عليها. وفي هذه الأثناء ألفت روايتها الثانية (جبل الله)، التي لا يزال البهائيون يعترفون بها.

تُبهر (ستيفانا) في عام 1910 من القاهرة جنوباً على متن زورق حكومي في النيل باتجاه السودان مخترقة أراضي الدنكا والشيلوك، التي تعج بالأفيال والتماسيح، وتؤلف أثناء ذلك روايتها الثالثة. وفي الخرطوم تتوثق علاقتها بمحام إنجليزي شاب يدعى أدوين درور، ويتزوجان في لندن في إجازة الصيف التالي. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى في عام 1914؛ التحق أدوين بالجيش، وعُين ضابطاً بشعبة تابعة للاستخبارات العسكرية البريطانية في نيويورك. وانتقلت ستيفانا مع طفليها مارجريت وبيبل إلى وينشستر، وهناك كتبت عدة روايات، إحداها عن الفجر. ثم لحقت بأدوين درور في مدينة البصرة، حيث عين قاضياً فيها؛ لانتقانه اللغة العربية، ولضلوعه بالقوانين التركية، ومنذ ذلك الوقت عُرفت باسم الليدي درور،

(1) هو ميرزا علي محمد رضا الشيرازي الملقب بالباب، والمولود سنة 1819. نشأ في شيراز بجنوب إيران، وأخذ شيئاً من مبادئ العلوم، ثم اشتغل بالتجارة، ولما بلغ الخامسة والعشرين ادعى أنه المهدي المنتظر، ثم تطور الأمر فادعى النبوة، ودعا إلى إصلاح الدين الإسلامي على أساس التفسير الروحي لا الحرفي للدين، فخالف أصول الدين الإسلامي، الأمر الذي أثار ثائرة رجال الدين، الذين شكوه لولاة الأمر في فارس، واعتقلته الحكومة الفارسية، وأعدمته في تبريز صلباً عام 1265هـ/ 1850م. وكان عندما جهر بدعوته عام 1844 قد التفت حوله ثمانية عشر شخصاً، فأرسلهم إلى جهات مختلفة لنشر أخبار ظهوره، وتحريض الناس على الانسواء تحت لوائه. محمد الخضر حسين: (الباية أو البهائية)، مجلة نور الإسلام، العدد الخامس، المجلد الأول (جمادى الأولى 1249هـ)، ص 355. وعلى هذا فالبهائية ليست ديناً، ولكنها عقيدة باطلة اعتمدت على تشويه العقيدة الإسلامية. محمد عبده يمانى: (البهائيون الحكم والموقف)، مجلة الدوحة، العدد 128، (ذو القعدة 1406هـ/ أغسطس 1986)، ص 6، 7. خوان كول: (البهائيون في إيران)، نيفين عبد الرؤوف (ترجمة)، مجلة هيسستوري توداي، المجلد 40، العدد الثالث، (مارس 1990).

ومن البصرة انتقلت إلى بغداد بعد فرض الانتداب البريطاني على العراق في سنة 1919، حيث عمل السير أدوين درور مستشاراً قانونياً في وزارة العدل العراقية في الفترة (1922-1946)، ورافقته زوجته هناك حيث أثار اهتمامها التنوع الاثني والديني، فتوجهت لدراسة الأقليات الدينية مثل اليزيدية في كردستان، والصابئة المندائيين، وكانت أول باحث غربي يُجري مسحاً ميدانياً لحياة وتقاليد وطقوس هذه الطائفة، حيث يعيش أفرادها، واهتمت بالحياة الاجتماعية لهم، وخاصة دور المرأة الاجتماعي.

تختلط الليدي درور بالعراقيين، وتدور في شوارع وأزقة وأسواق بغداد، وتتعرف على طبيعة الناس، وعلى العكس من غيرها من زوجات الموظفين والضباط البريطانيين اللواتي كن يمضين وقتهن باللعب والسباحة في النادي البريطاني سافرت إلى الموصل، وإلى الشيخ عدي⁽¹⁾ والتقت باليزيديين،

(1) هو عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان. شيخ الطريقة العدوية، اشتهر في حياته بالتفوق، فتابعه كثيرون، ولد في (بيت فار) من أعمال بعلبك، عاش 90 عاماً أو نحو ذلك، وتوفي في 557هـ/ يتفق المؤرخون على أنه أموي، وبذلك يفسرون أتباعه الكثيرين وسبب جبههم له. لم يتدع طريقة جديدة، وإنما هي عقيدة أهل السنة، وقد اشتهرت طريقته في سورية ومصر، وذاع صيتها، واشتهر عن اليزيديين عبادة إبليس، وهذه لم تكن في الحقيقة عبادة، وإنما هي من نتائج مقاطعة اللعن، فأنجرت إلى احترام الشيطان، وعده طاووس الملائكة بسبب تحرم ذكره. فحصل من آمالهم إلى أنه ما ترك لعن إبليس إلا بمكانته وحرمة، فداخلهم غلاتهم، وشوشوا عليهم معتقدهم، وساعد على ذلك المنقولات القصصية الخرافية من أنه كان أعبد الملائكة، وكان يحمل العرش وحده ستة آلاف سنة، وكان طاووس الملائكة، وهم يعظمون الشمس، ويصلون ثلاث ركعات عند طلوعها. وعندهم الختان والمعمودية معاً، وكتابهم المقدس (جلوة)، وهو كتاب كتب بأسلوب الوحي، يتضمن خطاب الله إلى عباده، والمقصود بهم اليزيديين. ومن كتبهم أيضاً (صحف رش)، أو الكتاب الأسود، وهو كتاب تاريخي طائفي يشتمل على نص حوادث القوم، وشيء من عاداتهم وتقاليدهم، وهو أقرب إلى الكتاب التاريخي. عباس العزاوي: (أصل اليزيدية وتاريخهم 3--) مجلة لغة العرب، الجزء 6 من السنة 9 (يونيه 1931)، ص 432-441؛ عباس العزاوي: (أصل اليزيدية وتاريخهم 5--) مجلة لغة العرب، الجزء 9 من السنة 9 (سبتمبر 1931)، ص 679-685؛ شكري الفضلي: (الأكراد الحاليون)، مجلة لغة العرب، الجزء 6 من السنة 3 (تشرين الثاني 1913)، ص 309-310؛ علي بدر: ماسنيون في بغداد: رسائل المستشرق الفرنسي لويس ماسنيون إلى الأب أنستاس ماري الكرمليني 1908-1911، (كولونيا: منشورات الجمل، 2005)، ص 223.

وذهبت حتى مضارب عشائر شمّر في بادية الموصل، واستقبلها الشيخ عجيل الياور، شيخ مشايخ عشائر شمّر⁽¹⁾، ورحب بها. وبتشجيع من زوجها عملت درور على جمع الموروث الفولكلوري العراقي.

تنشر الليدي درور في عام 1923 كتابها الثاني أثناء وجودها في العراق، بعنوان (على ضفاف دجلة والفرات)، ضمنته فصلاً عن المندائيين بعنوان (شعب غريب الأطوار) دونت فيه بشكل مفصل طقوس التعميد المندائية، كما أشارت إلى بعض كتبهم المقدسة. وصممت على تعلّم اللغة المندائية، فاستعانت بأحد معارفها في فينا ليحصل لها على أعمال المستشرقين الذين سبقوها بدراسة النصوص المندائية، مثل البروفسور ليدزبارسكي ونولدكه والسيوفي وآخرين؛ كخطوة أولى، وبدأت بتعليم نفسها ذاتياً اللغة المندائية. ولصعوبتها وعدم توفر قاموس خاص بها، شجعها الدكتور موسيس كاستور على البدء في إعداد قاموس مندائي. وفي عام 1937 قامت بنشر كتابها الشامل عن المندائيين بعنوان (مندائيو العراق وإيران The Mandaean of Iraq and Iran). وركزت دراستها وبحوثها وسط هذه الجماعات، ومنحتها جامعة أوكسفورد الدكتوراه الفخرية في عام 1954، كما منحتها جامعة أوبسالا السويدية شهادة مماثلة تقديراً لجهودها الميدانية الكبيرة بين الصابئة. وفي صيف عام 1964 قلقتها الحكومة الألمانية أعلى وسام في الدراسات السامية، وهو وسام ليدزبارسكي تمييزاً لما قامت به من بحوث وتراجم حول المندائية.

(1) كان أول من تولى مشيخة شمّر هو الشيخ صفوق الفارس الجربا، الذي برز فترة الصراع المصري العثماني في الشام 1831-1841، وتبعه نجله فرحان باشا الجربا، تلاه الشيخ فيصل بن فرحان الجربا، ثم الشيخ دهام الهادي الجربا، فالشيخ عجيل الياور. لوثر شتاين: رحلة إلى شيخ قبيلة شمّر مشعان الفيصل الجربا سنة 1962، قسم الترجمة في المؤسسة (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2011)، ص: 5؛ علي عفيفي علي غازي: أثر الصراع المصري العثماني في الجزيرة العربية والشام على العراق (1831-1841)، رسالة ماجستير غير منشورة، (الإسكندرية: كلية الآداب جامعة الإسكندرية، 2009)، ص 278-290.

تقوم الليدي درور في عام 1930 برحلة إلى أهوار العراق برفقة المبشرة الأمريكية كورنيلا داننبرج، أو شريفة الأمريكية، عضو بعثة التبشير الأمريكية العربية، والتي كانت تعمل لدى مستشفى البعثة في (العمارة) في رعاية الحوامل والنساء بين العشائر المحيطة بها. واهتمت الليدي درور بالموروث الشعبي، والقصص والحكايات الشعبية، وكانت تستمع لرواتها، وتدون ما يحكونه لها. وكانت إحداهن وتدعى (ليلى) تزورها وتجلس معها الساعات الطوال في حديقة دارها، وهي تروي لها ما تحفظه. وقد جمعت هذه الحكايات في كتاب أصدرته عام 1931 بعنوان (حكايات شعبية من العراق Folk Tales of Iraq). وسجلت مذكراتها مع شيوخ العشائر والأديان في كتاب (في بلاد الرافدين)، وروت فيه انطباعاتها حول الأهوار وكرديستان. وفي عام 1942 اندلعت أزمة سياسية في العراق، تمثلت بحركة رشيد عالي الكيلاني ضد حكومة نوري السعيد الموالية لبريطانيا، فاحتمى الموظفون البريطانيون داخل مباني السفارتين البريطانية والأمريكية، ووصلت من لندن إلى السفارة وأمر تدعو لإخلاء النساء والأطفال البريطانيين؛ فتم إجلاؤهم بما خف حمله، إلا أن الليدي درور رفضت مغادرة العراق ما لم يُسمح لها بأخذ الصندوق الثمين، الذي يحتوي على القاموس المندائي، وألته الكاتبة، وكتبها ومدوناتها الخاصة بالمندائيين. وبناء على إصرارها صرح لها بذلك فغادرت مع البقية إلى البصرة، ومن ثم بالباخرة إلى الهند. وأثناء وجودها في الهند اطلعت على طقوس (البارسي) الشبيهة بالطقوس المندائية، ودونت الكثير من الملاحظات عنها، والتي ضمنتها في كتابها على شكل هوامش ومقارنات.

تعود الليدي درور بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى بريطانيا، وتعكف على ترجمة الكتب والنصوص المندائية ونشرها، وعلى إكمال القاموس

المندائي. وفي هذه الأثناء منحت بريطانيا زوجها أدوين درور لقب فارس لأدائه المتميز في خدمة التاج البريطاني، ولكن صحته تدهورت، وتوفي في عام 1951، فقررت (ستيفانا) الانتقال إلى مدينة أوكسفورد؛ حيث كان يسكن العديد من زملائها الباحثين وأصدقائها المقربين، ومن أجل أن يكون عملها مستوفياً كل شروط البحث العلمي أدركت بأنه يتوجب عليها القيام بتسجيل صوتي للغة المندائية مباشرة من رجال الدين المندائيين، أثناء تأديتهم لطقوسهم الدينية، فعادت إلى العراق سنة 1952، وبدأت بتنفيذ هذا المشروع بعد أن ساعدتها شركة نفط العراق بإحضار آلة التسجيل جواً. كما تبرع أحد موظفي الشركة بتزويدها بكاميرا سينمائية، وتطوعت زوجة ذلك الموظف بمرافقتها إلى (العمارة) ومناطق الأهوار، حيث يقيم المندائيون لمساعدتها في هذا العمل، فسافرتا إلى قلعة صالح، وأنجزتا تسجيل الفيلم بالرغم من مرض درور الشديد نتيجة إصابتها بالمalaria. وقد عرضت درور الفيلم أول مرة أثناء انعقاد المؤتمر الشرقي في جامعة كامبردج عام 1953، والذي حضره جمع غفير من العلماء المختصين من كل أنحاء العالم. وفي أوكسفورد استمرت بالعمل على إنجاز قاموس المندائي، ولكنها شعرت أنها بحاجة لمن يتقن اللغات السامية، فقامت باستدعاء شاب تشيكي يدعى رودولف ماتسوخ يعمل أستاذاً في جامعة طهران لمساعدتها في إنجاز القاموس. كان التعاون مثمراً وتكلت جهودهما المشتركة بإصدار أول قاموس للغة الآرامية المندائية، وذلك في أوائل سنة 1963.

تقضي الليدي درور أيامها الأخيرة بسلام في دار رعاية المسنين شمال لندن، وتوفيت في فبراير 1972، عن عمر ناهز 92 عاماً، قضتها في البحث والتأليف وترجمة النصوص المندائية المختلفة إلى اللغة الإنجليزية، ومن مؤلفاتها القيّمة كتاب (على ضفاف دجلة والفرات- By Tigris and Euphra

(tes) وهو مجموعة فصول تطوي على نظرات عابرة، ولكنها عامرة ونافذة إلى جوانب كثيرة من حياة البلد وسكانه العامة: اجتماعية كانت، أو روحية، وتاريخية كانت أو أثرية، ولقد كتبها بأسلوب سلس يسير، وقصصي ممتع، في عام 1923.⁽¹⁾ وهو الكتاب الذي تتبعنا فيه إشاراتنا للخط العربي، ونقلنا عنه ما نسخته من خطوط قابلتها في ترحالها بين شمال العراق وجنوبه.

تقول الليدي درور عن هدفها من مؤلفها عن العراق: «إن كتابي يعرض على مواطني طرفاً من القضايا المعقدة والمتباينة تبايناً لا حد له ولا نهاية، إنها قضايا تتصل بحياة شعب في مقدورنا أن نقرر مصيره. إن ترك البلد لأهله بادئ الرأي، ليس بالأمر الهين اليسير. وفي مؤلفي هذا تناولت الأماكن والحوادث التي عنيت بها على وجه أخص، أو كنت شديدة التوق إليها».⁽²⁾ ثم توضح أن هدفها هو الأساطير والعادات والتقاليد، فتقول: «لقد شغفت ببיתי العراقي حياً، وشغفت بالعراقيين حياً جداً. وعنيت بالأساطير كثيراً، ولم أعن بالتاريخ إلا لماماً، وانصرفت بكليتي إلى استقصاء عادات العراقيين والخرافات الشائعة في البلد، ولم أتناول موضوع السياسة البريطانية أو معضلات الحكومة المحلية الإقليلاً. وأستميح قرائي عذراً إن رأوني أسير وراء خيالي المنسرح، فلقد اعتدت على كتابة القصص الخيالية».⁽³⁾

الخط المسماري

تذكر الليدي درور أن الكتب في الإمبراطورية الآشورية كانت تكتب بالخط المسماري، وهو خط تصويري تشبه علاماته الشكل الجانبي للمسمار، وقد

(1) الليدي درور: على ضفاف دجلة والفرات، فؤاد جميل (ترجمة)، (لندن: شركة الوراق للنشر المحدودة، 2008)، ص 13.

(2) الليدي درور: مرجع سابق، ص 17.

(3) الليدي درور: مرجع سابق، ص 18.

يُسمى، الخط الأسفيني، لأن علاماته تشبه أيضاً الشكل الجانبي للأسفين. وتشير إلى أن السير هنري لايارد، عندما قام بالتنقيب في تلال قوينجق سنة 1845، كشف عن السر الدفين⁽¹⁾، وأخرج «أثمن كنز استطاع العثور عليه أي عالم بالأشوريات، إنه خزانة كتب نينوى التي أسسها الملك المحارب سرجون في القرن السابع قبل الميلاد، والتي زاد فيها خلفاؤه من أمثال سنحاريب وأسرحدون، وإلى حفيد سرجون، آشور بانيبال، بطل الأساطير يرجع الفضل الأكبر في إنماء هذه الخزانة، فقد كان هذا الملك شغوفاً بالعلم والآثار، وفي عهده تم إيفاد الكتاب إلى بابل وآشور لاستتساخ الألواح الطينية الثمينة، وكتب المعرفة أينما وجدت، ثم جرت ترجمتها إلى الآشورية عن الألواح السومرية فلقد أصبحت اللغة السومرية آنئذ لغة ميتة، لا يستعملها إلا رجال الدين حصراً. وكانت خزانة الكتب هذه حسنة التنسيق والترتيب وتضم مؤلفات جمة من الدين والتاريخ والقواعد، وعلم النجوم، والحلول، والأساطير، والقانون والألغاز، والمزامير، والتعلقات، وما إلى ذلك، وكانت الألواح الطينية التي ينقش عليها الكتاب بالحروف المسماة بعناية بالغة ذات أشكال مختلفة، وتتسق مع موضوعاتها، فظهر البعض منها مدوراً، ومحدوباً، وجلي أن الاختلاف هذا إنما أريد به سهولة التصنيف. وفي الخزانة ألواح عجيبة تسرد قصة الطوفان البابلية، وفوقها ألواح ملحمة جلجاميش أيضاً. وفي مقدور المرء أن يتصور أمين خزانة الكتب هذه وهو ملتح وغارق في العمل فيرسم هذه اللوحة، ويصنف تلك، أو يويخ مساعداً على ما بدر منه من إهمال فتسبب في كسر إحدى القوائم، أو يقود الزائر إلى حيث تتكدس الألواح، التي تحتوي على ما يطلبه من معلومات. وقد يراه

(1) عن دور هنري لايارد في التنقيب عن آثار نينوى وبابل في العراق، راجع أوستن هنري لايارد: مكتشفات أطلال نينوى وبابل مع رحلات إلى أرمينيا وكردستان والصحراء، شيرين إبيش (ترجمة)، (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2014).

مصغياً إلى عبارات الإطراء والمدح على ما تضمنه الخزانة من نفائس، أو لما يتصف به كتابه من علم ودراية، ومن حسن الطالع أن يرمى الخزانة مثل أشور بانيبال (669-640 ق. م.) نصير العلم وبطل الحرب. ذلك أنه أضاف بإنماء كتبها فخراً إلى فخار شعبه، لقد خلد اسمه عن طريقها أكثر مما خلد بحروبه الدموية، أو بإقامته إمبراطورية عظيمة سرعان ما أخذت تنهار قبيل وفاته». (1) شورب

الخط العربي

ترصد الليدي درور الخط العربي في جوامع ومساجد العراق، فتذكر أنها عثرت في خارج جامع النبي يونس على كتابات تحتوي على «آيات قرآنية كتبت بخط لماع جميل، ووضعت في إطارات كما توضع الصور، ففي الشرق يُعنى الناس كثيراً بالخط الفني الجميل، وعلى جدار الغرفة التي تضم المدخل إلى القبو علقتم قطعة من سمك سياف البحر Sword Fish. وهم يقسمون غير حائثين على أنه جزء بقي من الحوت الذي التقم ذا النون» (2).

تواصل الليدي درور رصد الخط العربي في جامع مرجان، والمدرسة الملحقة به (3)، والتي تُشير إلى أنه تم بناؤهما في القرن الرابع عشر الميلادي، من قبل شخص يُدعى مرجان بن عبد الله الأولجاتي، (مدفون في المسجد الذي شيده)، فنقول: «إنك ما إن تمر من باب الجامع حتى ترى البناء الداخلي مكوناً من طبقتين: سفلى وعليا، ويحيط بفناء. أما الطبقة العليا فخصت في الأغلب للذين يشدون في طلب العلم. إنه مبني بالحجارة المهندسة

(1) الليدي درور: مرجع سابق، ص 24، 25.

(2) الليدي درور: مرجع سابق، ص 28.

(3) راجع ما ذكره الرحالة جيمس بكنجهام في علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي كتابات الرحالة جيمس بكنجهام). المجلة العربية، العدد 472. (جمادى الأولى 1437هـ/ فبراير 2016م)، ص 80-86.

المتينة التي امتاز بها عصره، وعليها كتابات وزخارف في الداخل والخارج. والكتابات هذه تمتاز بالدقة والجمال، ذلك أن الخط العربي من أشد ما عني به العرب وخلفوه في البلاد التي فتحوها. إن النبي (صلى الله عليه وسلم) يمنع تصوير الأحياء لذلك انصبت جهودهم الفنية على الطرز الهندسية وزخرف الكتابة. صور المستشرق الفرنسي النابه (ماسينيون) ما على الجامع من كتابات بعناية بالغة وثبتها في رسالة نفيسة نشرها عن مساجد بغداد. وعلى الجهة اليمنى من مدخل الجامع هذا (مدرسة القرآن) وفيها يحنو الدراس النابتون على (كتاب الله) ويليهما مسجد المصلى. والجامع جميل في بساطته، وكل ما يزينه محراب، والكتابات التي أشرت إليها أنقل ترجمة (ماسينيون) لها: (بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي وفق المطيعين لعمارة أبنية بيوت العبادات وألهم المخلصين إشادة أعمدة دور الصناعات (كذا والصواب الطاعات) ورفع ذكر الولاية بتأسيس معالم المكرمات، ودل أرباب السعادات على سلوك سبل الخيرات، ومنح المحسنين بتشريف (إن الحسنات يذهبن السيئات) وحباهم بمال: (والمصدقين والمتصدقات)، والصلاة والسلام على نبي الرحمة محمد المصطفى خير الأنام، وأصحابه مصاييح الدجى وبدور الظلام. أما بعد فيقول المفتقر إلى عفو الملك المنان، مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن بدل الله سيئاته: إني هاجرت في الأرض مدة سنين، وجاهدت في الطول والعرض ذات شمال ويمين، متورطاً في مخاوف البر والبحر، متورداً في متالف البرد والحر، فعلمت أن الدنيا دار الفرار وأن الآخرة هي دار القرار، وأيقنت أن أولى ما أنفقت فيه الأموال، وأخرى ما توجهت إليه همم الرجال، كان وسيلة إلى أبواب رحمته محط الرحال، وذخيرة ليوم المحاسبة والسؤال. قال النبي عليه الصلاة والسلام: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له). والصدقة الجارية هي الوقف

في عمارة هذه المدرسة المسماة المرجانية وتوابعها المتصلات ببعضها في زمن المخدوم الأعظم الدارج إلى جوار ربه وجناته المستريح على أعلى غرفات جنانه الشيخ حسن نويان (النويان والجفتاي في لغة ترك المغول تطلق على الملوك والسلاطين وأمثالهم) أنار الله برهانه. ثم تمض الكتابة فتعدد الدكاكين والخانات والأراضي والبيوت والبساتين وما إلى ذلك مما حبس من غير لئدر المال على الجامع والمدرسة (موطن العلماء ومنزل الخلفاء) وجاء فيها (ومن غير شروط هذه الأوقاف أو تصرف فيها خلاف ما شرطت في الوقفية فهو ظالم عند الله، ألا لعنة الله على الظالمين. إن هذه الكتابة في محتواها وفحواها تمثل التقوى الصادقة، والنفس المطمئنة، ومخافة الله في الدنيا والآخرة. إنها صورة صادقة لنفس أحد الأرقاء، كان عبداً مملوكاً فأصبح سيداً موسراً، إنه عصامي سعى إلى أتلاذ المال في الدنيا الفانية، ثم وجد أن التقوى والإحسان خير سبيلين يؤديان به إلى تبوؤ المكان المرموق المعد للصفوة المختارة من الناس»⁽¹⁾.

تشير الليدي درور إلى وجود مكتبة ملحقة بجامع مرجان، فتقول: «وفي جانب من الفناء، وقبالة الجامع محل للوضوء معد للطلاب وغيرهم من المصلين. على مقربة منه سلم يؤدي إلى المكتبة. وفيها كتب قيمة. والجامع مدين إلى حد كبير لفضل الأسرة الألوسية⁽²⁾. وفي المكتبة (اسطرلاب) نحاسي فارسي الصنعة، وفيه أسماء كثير من المدن ومميلات من خشب معلقة بسلك. كما أن فيه شمعداناً نحاسياً دقيق الصنع يرجع تاريخه إلى القرن الرابع عشر، وعليه كتابة تشير إلى أن مهديه هو مؤسس الجامع (مرجان) نفسه. وفي أعلى الجامع نافذة جميلة لغرفة من غرف الطلاب»⁽³⁾.

(1) الليدي درور: مرجع سابق، ص 125-127.

(2) عن الأسرة الألوسية راجع علي عفيفي علي غازي: (موقف أبي الفناء الألوسي من الصراع المصري العثماني في ثلاثينات القرن التاسع عشر)، قيد النشر.

(3) الليدي درور: مرجع سابق، ص 128.

الخط الكوفي

تُميز الليدي درور الخط الكوفي في جامع العاقولي ببغداد، فتقول: «وهناك زقاق صغير يتلوى في جوف المدينة مؤدياً إلى جامع أثري آخر هو جامع العاقولي، ومؤسسه رجل يختلف من حيث الجبلية عن مرجان مؤسس الجامع السابق ذكره، إنه عبد الله العاقولي المولود سنة 1240 والمتوفي سنة 1327 كان قاضياً ومدرساً في المدرسة المستنصرية ولقراراته التي يتخذها في دقائق قضايا الشريعة نفوذ وقوة، فهي مقبولة ملزمة عند كل الناس. ولقد دفن عند المغرب بحضور القضاة في بيته الذي أوقفه على شيخ يعلم عشرة أيتام صغار (القرآن)، ولقد أعيد بناء الجامع مرات عديدة. أما الغرفة التي تضم القبر الخشبي المزخرف الذي يضم رفات مؤسسه، والتي يوصل إليها من فناء تقوم فيه شجرة سدر، فلم تتغير إلا قليلاً على أغلب الاحتمالات. وعلى القبر كتابة كوفية مزخرفة جميلة جداً، ولم يستطع أحد قراءتها لمدة طويلة، إنها مثال ممتع على استعمال الحروف العربية في الزخرفة. والظاهر أن أحد ألواح أقدم من الآخر، ولعله منقول من قبر أقدم من قبر العاقولي. ونقشت على القبر الآيتان الكريمتان بسم الله الرحمن الرحيم (بيشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجات لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبداً) (التوبة: الآيتان 21-22)، بسم الله الرحمن الرحيم (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون) (الأحقاف: الآيتان 13، 14)».⁽¹⁾

تذكر الليدي درور أنها شاهدت كتابات بالخط الكوفي على قبر الإمام يحيى بالموصل، فتقول: «وفي مطلع القرن الثالث عشر عاش في الموصل السلطان

(1) الليدي درور: مرجع سابق، ص 128، 129.

بدر الدين لؤلؤ، (وهو ينتسب إلى أسرة عطار بك) وكان رجلاً على جانب من التقوى وحب العمارة. وكان قصره قائماً على ضفة النهر وضمن سور لمدينة الشمالي وكجزء منه، وما زالت زخرفة الظهارة -Stucco Orna ment (آخر طبقات البياض في جدار) باقية على العقد، وخير شاهد على ما كان عليه البناء أنثذ من جودة ومتانة. ويقوم قبر السلطان على مقربة من القصر وبجانبه قبر الست فاطمة (وهي مقبرة السادة) رحمه الله لقد أغنى المدينة كثيراً. وبنى بدر الدين لؤلؤ قبر الإمام يحيى على مقربة من النهر، ومزاره جميل وصغير، وتعلوه منارة هرمية مئمنة الأضلاع والزوايا، وهي ليست على غرار القباب المعتادة. وعلى واجهة المزار كتابات عربية بالخط الكوفي. وتقيد إحدى هذه الكتابات أن العبد الفقير لؤلؤ بن عبد الله، ملك الموصل، بنى الجامع ليفيد منه المؤمنون وينعم هو برضاء الله. وعلى جانب من القبر تاريخ بنائه وهو 619 هجرية».⁽¹⁾

(1) الليدي درور: مرجع سابق، ص 146، 147.

المصادر والمراجع

أولاً: باللغة العربية ومعربة

- 1- إبراهيم الحيدري: صورة الشرق في عيون الغرب، (بيروت: شركة دار الساقى، 1996).
- 2- ابن النديم: الفهرست، (بيروت: دار النوادر، 2012).
- 3- أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني: مختصر كتاب البلدان، (لندن: مطابع برييل، 1302هـ).
- 4- أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري: فتوح البلدان، عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع (تحقيق)، (بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، 1987).
- 5- أحمد خليل عطوي: دولة الإمارات العربية المتحدة، نشأتها وتطورها (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، 1988).
- 6- أدولفو ريفادينيرا: من سيلان إلى دمشق، صالح علماني (ترجمة)، (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2009).
- 7- أسعد عبد الفارس: (الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية أهدافهم وغاياتهم)، في كتاب دارة الملك عبدالعزيز: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية الجزء الأول، (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 2000).
- 8- الليدي أن بلنت: قبائل بدو الفرات عام 1878، أسعد الفارس: نضال خضر معيوف (ترجمة)، (دمشق: دار الملاح للطباعة والنشر، 1991).
- 9- الليدي درور: على ضفاف دجلة والفرات، فؤاد جميل (ترجمة)، (لندن: شركة الوراق للنشر المحدودة، 2008).
- 10- إليزابيث بيرغوين: جبر ترودو بيل من أوراقها الشخصية 1914-1926، نعيم عباس مظفر (ترجمة)، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002).
- 11- أندريه لومير: (أصل الأبجدية السامية العربية وكتابتها)، قاسم عبده قاسم (ترجمة)، في كتاب خالد عزب (تحرير): تاريخ الكتابة من التعبير التصويري إلى الوسائط الإعلامية المتعددة، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2005).
- 12- أنس محمد رأفت محمد سعيد: المحاور التحوية جمع ودراسة موضوعية، إبراهيم عوض وعلي عفيفي علي غازي (تقديم)، (الدوحة: المؤلف، 2017).
- 13- أوستن هنري لايارد: مكتشفات أطلال نينوى وبابل مع رحلات إلى أرمينيا وكردستان والصحراء، شيرين إبيش (ترجمة)، (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، 2014).
- 14- باسكال فيرنو: (الكتابات في مصر القديمة)، خالد داوود (ترجمة)، في كتاب خالد عزب (تحرير): تاريخ الكتابة من التعبير التصويري إلى الوسائط الإعلامية المتعددة، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2005).
- 15- بكتكهام: (رحلة بكتكهام، وصف بغداد)، محمد علي حلاوي (ترجمة)، في كتاب بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق للنشر، 2007).
- 16- بيتر برنيث: بلاد العرب القاصية، رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب، خالد أسعد عيسى: أحمد غسان سببانو (ترجمة)، (بيروت: دار قتيبة للنشر والتوزيع، 1990).
- 17- جمس بكتكهام: رحلتي إلى العراق سنة 1816، سليم طه التكريتي (ترجمة)، ج2، (بغداد: مطبعة أسعد، 1968).
- 18- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج8، (بغداد: جامعة بغداد، 1993).
- 19- جيمس بيلي فريزر: رحلة فريزر إلى بغداد سنة 1834، جعفر الخياط (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2006).
- 20- حبيب أفندي بيداش: الخط والخطاطون، سامية محمد جلال (ترجمة) الصفصاف في أحمد القوطي (مراجعة)، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010).

- 21 - حسن أحمد محمود: الكندي المؤرخ وكتابه الولاة والقضاة، (القاهرة: الدار العربية للتأليف والترجمة، د. ت.)،
- 22 - ربحي مصطفى عليان: المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، (عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع، 1999).
- 23 - ستيفن همسلي لوتكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، جعفر الخياط (ترجمة)، (بغداد: مكتبة اليقظة العربية، 1985).
- 24 - سلطان بن محمد القاسمي: جون مالكلولم والقاعدة التجارية البريطانية في الخليج 1800، (الشارقة: الخليج للصحافة والطباعة والنشر، 1994).
- 25 - سمير عطا الله: قافلة الحبر الرحالة الغربيون إلى الجزيرة العربية والخليج، (بيروت: دار الساقي، 1994).
- 26 - سهيل قاشا: الموصل في مذكرات الرحالة الأجانب خلال الحكم العثماني، (بغداد: شركة دار الورق للنشر المحدودة، 2009).
- 27 - سهيلة ياسين الجبوري: الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق، (بغداد: مطبعة الزهراء، 1962).
- 28 - سوانسن كوبر: رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك من البحر المتوسط إلى بومبي عن طريق مصر والشام والعراق والخليج العربي في 1893م، صادق عبد الركابي (ترجمة)، (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2004).
- 29 - شارل هويبر: رحلة في الجزيرة العربية الوسطى 1878-1882، إيسار سعادة (ترجمة)، (بيروت: كتب للنشر والتوزيع، 2003).
- 30 - طارح بن سعيد القحطاني: أسرار الحروف وحساب الجمل، رسالة ماجستير غير منشورة، (مكة المكرمة: كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى، 2009).
- 31 - عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة العلامة ابن خلدون، (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي، د. ت.)،
- 32 - علي بدر: ماسنيون في بغداد: رسائل المستشرق الفرنسي لويس ماسنيون إلى الأب أنستاس ماري الكرملي 1908-1911، (كولونيا: منشورات الجمل، 2005).
- 33 - علي عبد الله فارس: شركة الهند الشرقية البريطانية ودورها في تاريخ الخليج العربي 1600-1858، (الشارقة: المسار للدراسات والاستشارات والنشر، 1997).
- 34 - علي عفيفي علي غازي: رؤية الرحالة لقيم وعادات عشائر العراق 1800-1958، رسالة دكتوراه غير منشورة (دمنهور: كلية الآداب جامعة دمنهور، 2014).
- 35 - علي عفيفي علي غازي: أثر الصراع المصري العثماني في الجزيرة العربية والشام على العراق (1831-1841)، رسالة ماجستير غير منشورة، (الإسكندرية: كلية الآداب جامعة الإسكندرية، 2009).
- 36 - علي عفيفي علي غازي: الصراع الأجنبي على العراق والجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، (بيروت: دار الرافدين للطباعة والنشر، 2015).
- 37 - عمار السنجرى: البدو بعيون غربية، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2008).
- 38 - عوض البادي: الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، نص رحلة البارون إدوارد تولده مبعوث روسيا إلى نجد عام 1893م/ 1310هـ، (الرياض: شركة دار بلاد العرب للنشر والتوزيع، 2002).
- 39 - عوض البادي: الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية (منطقة الجوف ووادي السرحان) 1845-1922، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2002).
- 40 - فرانسيس ديرووش: (الكتابة العربية)، محمد عبدالستار عثمان (ترجمة)، في كتاب خالد عزب (تحرير): تاريخ الكتابة من التعبير التصويري إلى الوسائط الإعلامية المتعددة، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2005).
- 41 - فراوكة هيردي: (التحديات الواقة والمتخيلة لوضع بريطانيا في الخليج)، في كتاب عبيد علي بن بطي (محرر): كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور، (دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1996).
- 42 - فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى: الحضر مدينة الشمس، (بغداد: مديرية الآثار العامة بوزارة الإعلام، 1974).

- 43 - كارستن نيبور: رحلة نيبور إلى العراق في القرن الثامن عشر، محمود حسين الأمين (ترجمة)، (بغداد: شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، 1965).
- 44 - كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مصطفى جواد (ترجمة)، في كتاب بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق للنشر المحدودة، 2007).
- 45 - كلوديوس جيمس ريج: رحلة ريج المقيم البريطاني في العراق عام 1820 إلى بغداد وكردستان وإيران، اللواء بهاء الدين نوري (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2008).
- 46 - لوثر شتاين: رحلة إلى شيخ قبيلة شمر مشعان الفيصل الجريا سنة 1962، قسم الترجمة في المؤسسة (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2011).
- 47 - لوي جاك روسو: رحلة إلى الجزيرة العربية سنة 1808، بطرس حداد (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2010).
- 48 - ليدى بيل: رسائل جيرترود بيل 1899-1914، رزق الله بطرس (ترجمة)، (بيروت: دار الوراق للنشر المحدودة، 2008).
- 49 - ماكس أوبنهايم: رحلة إلى مسقط عبر الخليج، محمود كبيبو (ترجمة) (بيروت: دار الوراق للنشر والتوزيع، 2009).
- 50 - ماكس فون أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج: لبنان وسوريا، محمود كبيبو (ترجمة)، (لندن: دار الوراق للنشر، 2008).
- 51 - ماكس فون أوبنهايم: البدو، الجزء الأول: ما بين النهرين (العراق الشمالي) وسورية، ميشيل كيلو ومحمود كبيبو (ترجمة)، (لندن: شركة دار الوراق للنشر، 2007).
- 52 - محسن فتوني: موسوعة الخط العربي والزخرفة الإسلامية (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2002).
- 53 - محمد بن موسى بن علي الشافعي المعروف بابن البصيص: شرح قصيدة ابن البواب في علم صناعة الكتاب، يوسف ذنون (تحقيق)، (بيروت: دار النوادر، 2008).
- 54 - محمد طاهر الكردي المكي: تاريخ الخط العربي وأدابه، (القاهرة: مكتبة الهلال، 1939).
- 55 - محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرهما، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1978).
- 56 - مدام ديولافوا: رحلة مدام ديولافوا من المحمرة إلى البصرة وبغداد 1881م/1299هـ، علي البصري (ترجمة)، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2007).
- 57 - نيقولا سيويجي: رحلة نيقولا سيويجي 1873، تيسير خلف (تحقيق)، (دمشق: التكوين للتأليف والترجمة والنشر، 2009).
- 58 - هنري فوستر: نشأة العراق الحديث، سليم طه التكريتي (ترجمة)، ج1، (بغداد: الفجر للنشر والتوزيع، 1989).
- 59 - وليد كاصد الزبيدي: بغداد في مذكرات رحالة فرنسيين مطلع القرن العشرين، (أبو ظبي: نادي تراث، الإمارات، 2013).
- 60 - ويليام ب. سيبروك: مغامرات في بلاد العرب، عارف حديفة ونبيل حاتم (ترجمة)، (دمشق: دار المدى للنشر والتوزيع، 2006).
- 61 - ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، (بيروت: دار صادر، 1977).
- 62 - يحيى وهيب الجبوري: الخط والكتابة في الحضارة العربية، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1994).
- 63 - يوسف ذنون: الكتابة وفن الخط العربي النشأة والتطور، (بيروت: دار النوادر، 2012).
- 64 - يوسف ذنون: زينة المعنى (الكتابة، الخط، الزخرفة)، (الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث، 2015).
- 65 - يوليوس أويتنج: رحلة داخل الجزيرة العربية، سعيد بن فايز السعيد (ترجمة)، (الرياض: دار الملك عبدالعزيز، 1999).

ثانياً: مقالات في دوريات

- 66 - ألبرت تايبلا: (الحروف الهجائية في الزخرفة الألمانية الحديثة)، مجلة فكر وفن، العدد الثالث، (1964).
- 67 - بكتكهام: (رحلة بكتكهام، وصف بغداد)، محمد علي حلاوي (ترجمة)، في كتاب بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق للنشر، 2007).

- 68 - جاسم محمد جرجيس: (البدو)، مجلة ليوا، العدد 13، (يناير 2005).
- 69 - حسن الباشا: (أثر العروبة والإسلام في نشأة فنون العمارة والزخرفة الإسلامية)، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الأولى، (ذي الحجة 1395هـ/ ديسمبر 1975).
- 70 - خالد الأغا: (القرآن.. وابداعات الخط العربي)، مجلة أخبار الأسبوع، العدد 351، (6 مارس 1993).
- 71 - خوان كول: (البيهانسون في إيران)، نيفين عبدالرؤف (ترجمة)، مجلة هيستوري توداي، المجلد 40، العدد الثالث، (مارس 1990).
- 72 - زكي محمد حسن: (تراث الفنون الإسلامية في البلقان وأوروبا الوسطى)، مجلة الكتاب، المجلد الثاني، الجزء العاشر، (أغسطس 1946).
- 73 - زكي محمد حسن: (جوهر الفنون الإسلامية)، مجلة الكتاب، المجلد الأول، الجزء الأول، (ذو القعدة 1364هـ/ نوفمبر 1945م).
- 74 - سوزان شكرون: (علاقة الزخرفة والحروفية بالفنون التشكيلية في الغرب والعالم العربي)، مجلة العربي، العدد 635، (شوال 1432هـ/ أكتوبر 2011م).
- 75 - سيد حسب الله: (الحروف العربية وعلاقتها بالحساب)، مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة الخامسة، (ربيع الثاني 1400هـ/ مارس 1980).
- 76 - شريف يوسف: (اكتشافات الرواد والرحالين الغربيين في شبه الجزيرة العربية وأثر العرب في علم الجغرافية)، مجلة المورد، المجلد 11، العدد الثاني (صيف 1982).
- 77 - شكري الفضلي: (الأكراد الحاليون)، مجلة لغة العرب، الجزء 6 من السنة 3 (تشرين الثاني 1913).
- 78 - صلاح أحمد الطنوبي: (المكتبات في الإسلام)، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 271، (رجب 1407هـ/ مارس 1987م).
- 79 - عباس الغزاوي: (أصل البيزيدية وتاريخهم 3--)، مجلة لغة العرب، الجزء 6 من السنة 9 (يونيه 1931).
- 80 - عباس الغزاوي: (أصل البيزيدية وتاريخهم 5--)، مجلة لغة العرب، الجزء 9 من السنة 9 (سبتمبر 1931).
- 81 - عبدالعزيز العنزي: (رحلة أويتنج من الشمال وحتى مدائن صالح)، مجلة ترحال، العدد 58، (ربيع الآخر 1436هـ/ فبراير 2015م).
- 82 - عبد المنعم عبد الحليم سيد: (دور أسلاف عرب شمال الجزيرة العربية في نشأة الخط المسند اليمني القديم)، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الثامنة، (شوال 1402هـ/ يوليو 1982م).
- 83 - علي عفيفي علي غازي: (الخطوط العربية الأولى: نشأتها وتطورها)، صحيفة الحياة، العدد 17571، (14 مايو 2011).
- 84 - علي عفيفي علي غازي: (رحلة زاروا الإمارات - كارستن نيبور)، مجلة الإمارات الثقافية، العدد 46، (يونيو 2016).
- 85 - علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي.. ذاكرة جمالية ومعين للباحثين من كتابات الرحالة يوليوس أويتنج)، مجلة ومضات، العدد 26 (مايو 2016).
- 86 - علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي في كتابات الرحالة جمس بكنجهام)، المجلة العربية، العدد 472، (جمادى الأولى 1437هـ/ فبراير 2016م).
- 87 - علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي في كتابات الرحالة كارستن نيبور)، مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني، (2016).
- 88 - علي عفيفي علي غازي: (الخط العربي في كتابات الرحالة كارستن نيبور)، مجلة أفكار، العدد 324، (كانون الثاني 2016).
- 89 - علي عفيفي علي غازي: (رحلة زاروا قطر (7) كارستن نيبور)، مجلة الدانة، العدد 45، (أكتوبر 2015).
- 90 - علي عفيفي علي غازي: (منهج النقد الفني للوحات الخطية)، المجلة العربية، العدد 404، (رمضان 1431هـ/ سبتمبر 2010م).
- 91 - علي عفيفي علي غازي: (نشأة وتطور الخط العربي في الإسلام)، المجلة العربية، العدد 405، (شوال 1431هـ/ سبتمبر 2010م).

- 92 - قيس جواد العزاوي: (التحف كما وصفها بعض المستشرقين الفرنسيين). جريدة الجريدة، (13 أبريل 2006).
- 93 - كارستن نيبور: (رحلة نيبور في العراق في القرن الثامن عشر)، محمود حسين الأمين (ترجمة). مجلة سومر، المجلد 9، الجزء الأول (1953).
- 94 - كارستن نيبور: (بغداد في رحلة نيبور)، مصطفى جواد (ترجمة)، مجلة سومر، المجلد 20، الجزء الأول والثاني (1964).
- 95 - كامل إبراهيم: (فن الخط العربي)، مجلة فكر وفن، العدد 38، (1983).
- 96 - لؤي داخل: (فن الزخرفة الإسلامية)، مجلة فكر وفن، العدد 56، (1993).
- 97 - ماهر أحمد عيسى: (لماذا تحول المصريون إلى اللغة العربية؟)، مجلة رواق التاريخ والتراث، العدد الأول، (يناير 2016).
- 98 - محمد الخضرم حسين: (البايية أو البهائية)، مجلة نور الإسلام، العدد الخامس، المجلد الأول (جمادى الأولى 1249هـ).
- 99 - محمد بوشعيب الصغير: (زخرفة المخطوطات مفخرة الحضارة الإسلامية)، جريدة الفنون، العدد 84، (ديسمبر 2007).
- 100 - محمد حميد الله: (صنعة الكتابة في عهد الرسول والصحابة)، مجلة فكر وفن، العدد الثالث، (1964).
- 101 - محمد عبده يمانى: (البهائيون الحكم والموقف)، مجلة الدوحة، العدد 128، (ذو القعدة 1406هـ/ أغسطس 1986).
- 102 - نجاة شاكر محمد زيدان: (أثر العقيدة الإسلامية في فن الزخرفة عند المسلمين)، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة الثالثة، (صفر 1398هـ/ يناير 1978م).
- 103 - هلال الحجري: (مدخل إلى أدب الرحلات في عمان، دراسة وصفية للرحالة البريطانيين 1626-1970)، مجلة نزوى، العدد 35، (يوليو 2003).
- 104 - يحيى سويلم: (بدائع الفنون الإسلامية وتجلياتها)، مجلة جريدة الفنون، العدد 82، (أكتوبر 2007).
- 105 - يوسف ذنون: (الكتابة الحضرية وأثرها في نشوء الكتابة العربية)، مجلة فنون إسلامية، العدد الأول، (خريف 2009).
- 106 - يوسف ذنون: (الخط المكي)، مجلة حروف عربية، العدد 37، (محرم 1437هـ/ أكتوبر 2015م).
- 107 - يوسف محمد عبد الله: (صور أدبية من خلال الشواهد الأثرية في جزيرة العرب قبل الإسلام)، مجلة رواق التاريخ والتراث، العدد الثاني، (يونيو 2016).

ثالثاً: باللغات الأجنبية

- 1 - Bill McGlone (and others): Petroglyphs of Southeast Colorado and the Oklahoma Panhandle. (California: Mithare Production Corporation. 1994).
- 2 - Hoskins, H.L: British routs to India. (London:Longmans Green. 1928).
- 3 - Lady Anne Blunt: Bedouin Tribes of the Euphrates. (New York: Harpers & Brothers Publisher. 1879).

يلعب الخط العربي دوراً في التربية الإسلامية، ويتصدى للأصول الفكرية الكامنة وراء مناهج التعليم؛ إذ يحتل مكان الصدارة بين الفنون الإسلامية؛ لأنه من الفنون المتطورة عند المسلمين، وخير شاهد على براعتهم.

وفي هذا الكتاب حديث مسهب عن نشأة هذا الفن ومراحل تطوره عبر العصور، إضافة إلى أبرز مرثيات ومقولات وتعليقات الرحالة المستشرقين خلال تجوالهم في أرجاء الوطن العربي أو حتى في تلك البلدان التي كانت خاضعة لحكم العرب المسلمين في حقبة من حقب التاريخ.